لقاء في الفوج الأخير

لقـــاء في الفوج الأخير

مجموعة قصصية

حسين المناصرة

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م

رقم التصنيف : ق

المؤلف ومن هو في حكمه : **حسين المناصرة**

عنوان المصنف : لقاء في الفوج الأخير

رؤوس الموضوعات : ١ ـ القصة العربية

رقم الايداع : (١٩٩٤/٧/٧٢٧)

الملاحظات : عمان : المطبعة التعاونية

* ـ تم اعداد بيانات الفهرسة الأولية من قبل المكتبة الوطنية

الطابعون

جمعية عمال المطابع التعاونية

عمان ـ هاتف ٦٣٧٧٧١ ـ ص.ب ٨٥٧ ـ فاكس ٦٣٧٧٧٣

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الاهـــداء

ـ إلى فرسان الفوج العاشر الذين قتلوا «جيوبهم» مـن أجـل حبهم ، وكانوا ضحايا حقيقية لفرسان «الجيوب» ..

ـ إلى أمي البطلة الغائبة / الحاضرة .. فقـد كانت أسطورة كفـاح شعبيّ لا ينضب ..

القـــاص

عسى الكرب الذي أمسيت فيه
يكـون وراءه فـرج قريـب
فيأمـن خائف ويفـك عـان
ويأتي أهلـه النائـي الغريب

هدبة بن خشرم

« وفي العشاء عاد الغول ، فأخفت ابن عمها تحت سريرها ، فشم الغول رائحة غريبة • فصاح : ريحة إنس • فردت عليه متصنعة الغضب : ريحة الانس فيك وفي أذيالك يـا أبا الخماخم ! •• فسكن روعه •• » •

خرافية سرايا بنت الغول

إعـــلان

بـــراءة :

قد تعود هذه النّصوص ـ في ظنّي ـ إلى المتخيل الثقافي العربي ، فيما يخص إشكاليّة زمكانية المعضلة العربية فنياً ـ طبعاً أغلب النصوص ـ ... وما دام الفن ـ كما يقول لوكاش ـ هو المبالغة إلى أقصى درجاتها في التعبير عن قسوة الواقع فنياً وجمالياً ، فانه من هذه الناحية يبعد الكاتب (القاص) عن أية مساءلة تاريخية تسجل له أو عليه ؛ لأنه لا يكتب تاريخاً ـ كما هو متعارف عليه إبداعياً ـ وإنما يكتب في حالة من الوعي واللاوعي لغة مجازية ؛ لها علاقة إلى حد ما بوادي عبقر . وهي لغة متخيلة لا يشترط فيها من الناحية الابداعية أن تطابق الواقع أو أن تكون هي الواقع . وربما لا أتفق مع من يتلقاها على أساس أنها مرآة عاكسة ناقدة أو مناقضة للواقع السلبي ... وبناء على ذلك أشير ـ بكل رحابة صدر ـ إلى أنّ القصص في مجملها حكايات متخيلة ، وما يأتي من لغتها مطابقاً للواقع هو من قبيل الصدفة المحضة ...

القاص

١٩٩٤/٢/٢٥م

الورقـــة

نظر إلى الوجوه التي حوله ، فرآها غير أنيسة ...

أما لماذا ينظرون إليه هكذا ـ حيث نظراتهم مشبعة بالوقاحة ـ فأمر لم يعرفه بعد ... صحيح أنه قبل ثوان التقط ورقة كانت مرمية على الأرض ، وعندما حاول أن يقرأها وجد نظراتهم أكثر بلاهة ، وقلقاً ، عدا عن الفضول والتلصص الغريب ... وذهبت محاولات معرفة ما في الورقة عبثاً ...

رآهما عندما وُلدا من بين النّاس متحفزين ... وعندما اقتربا من مشيته المتراخية ، جاء صوت أحدهما واضحاً أو هكذا خيّل له :

ـ توقـــف .

لم يعرْهما اهتماماً واضحاً ... وتابع مشيته مدركاً بأن في الأمر شيئاً ...

ـ أنت ... توقف .

ـ أنـــا !!؟

ـ نعـــم .

إقترب منه الرجل الأعرض . والآخر أخّر خطوة ، وراح يراقب الناس برأس مروحيّ ... أو هكذا خيّل له ...

ـ أنت مقبوض عليك .

ـ ماذا تعني ؟!!

ـ إمشِ معنا بهدوء .

ـ ماذا فعلت ؟!! هل المشي في الشارع جريمة ؟!!

ـ هيا ... هيا الآن ، وبعدها أوضح لك الأمر .

ـ وضح الأمر الآن ، لن أذهب معك . ثم من أنت ، وبأية صفة تتكلم ... !!!

تقدم الآخر الذي كان يسمع ما يجري ، فاحتضن يدي اليسرى . في حين قام محدّثي باحتضان اليد اليمنى . وسحباني كأننا أصدقاء ثلاثة متكاتفون ...

قال الرجل اليمين ، بعد أن أمسكالورقة التي ما زالت بيدي اليمنى : « اتركها ، اتركها ، هذه الدليل المباشر على استضافتنا لك » .

ـ ولكنها كانت مرمية في الشارع . وأنا لا أعرف ماذا فيها بعد !!

ـ كان عليك ألا تمسكها .

ـ ماذا يوجد فيها ؟ وكيف أعرف أنها خطرة !!

ـ ستعرف عندما نصل إلى هناك .

ـ الناس كلهم رأوني عندما تناولتها عن الأرض !!

ـ ونحن رأيناك . المشكلة في تناولها .

ـ إذا كانت في الورقة مشكلة ما ، فاعتبرا ما فعلته فضولاً ؛ ويجب ألا أعاقب عليه !!

ـ اسكت الآن ، وقل هناك ما تريد ...

قَطّعت ضيق نفسي بكتلة من الهواء ، وتمتمت : « اللهم لا أسألك ردّ القضاء ، ولكنّي أسألك اللطف فيه » .

١٩٩٤/٥/١م

عشتار وهواجس الحلم

١ ـ الخشـــة :

تلك الوجوه الحزينة المحترقة ، تربعت فوق أجساد نحيفة كعيدان القصب ، تسردبت آفاقاً ملبدة داكنة ...

وهو بيت وحيد ، آسف ، أعني « خُشَّة » وحيدة ، مهترئة ، مهربة ، ترقد على حد مختلس ، ولا تحدّها أية حدود ...

والقفل وحيد ، صدىء ، بالٍ ، ربما لم يكن إلا منظراً ؛ التصق كقرادة عجفاء فوق جسد ؛ لم يكن غير عظم ، وبقايا جلد ؛ دُعك ألف مرة ليكون باب الخُشَّة ...

أما « الحوش » فقد تشكل بفعل بقايا سور قديم ، أثريّ ، مهمل ؛ تآكلت رؤوسه والأفخاذ ، وانفتحت بوابته مشرعة على ما يشبه الشارع العام ؛ حيث تلتصق دورية الحد بخصره ...

ولم يكن السور هكذا عندما تركه أولئك الذين اُغْتُصِبُوا منه ، لتحل مكانهم بقايا تسربت من كل المداخل المتأملة ؛ أهمّها : أوراق مدهونة بالشحوم والطين متهتكة أكثر من كل الأشياء المعفرة في الساحة الواسعة المجعدة الوجه منذ دهر ؛ لأنها لم تر مكنسة تغسل وجهها الكئيب ، والسنين مرت طويلة جافة ، وأرضها مثل الأنثى تموت عندما لا ترى الماء والمحراث والمكنسة ، أو إنساناً ما أليفاً يدغدغ عواطفها على أمل ما ...

٢ ـ التقطتـــه :

كانت المدينة براقة ، وربما داكنة بائسة ، وكانت الأضواء ملتهبة ، وربما صفراء مريضة ، وكان النهار حاراً منسماً ، وربما باكياً ممغوصاً ... وكان ... ، وكان ... ، وكان ... ، والناس لا يظهرون ، وهنا يقفون كبنيان متهتك على الحد ، يعرضون وثائقهم على رجال يلبسون ملابس زرقاء داكنة ...

العجوز تلبس ثوباً فلاحياً ، وتضع « غدفة » بيضاء على رأسها ، تنظر بعيون تجعدت جفونها ، فأضحت كخوازيق النمل . تبتعد عن الحد قرابة عشرة أمتار ، تراه متجهما يحرق الاقتراب منه . تحمل بين يديها طفلاً ؛ هو في كل الأحوال ليس ابنها ...

من أين أتت به ؟! من أين جاءها ؟! ربما التقطته من قفا الشارع ، بعد أن تخلت عنه امرأة ما ، فضلت أن تبقى لوحدها ؛ فوضعته في متاهة الشارع ، علّ امرأة ما تلتقطه ... هل أنعمت عليه تلك المرأة نعمة كبيرة ، عندما تخلّت عنه لأخرى ؟! أم أنّه قدره ؟! ربما راقبته لتتأكد من دخوله عالم ذراعين ؛ يطبعان قبلة ما على وجه طفوليّ شارد في عالم من التساؤلات ... ثمّ يتلاشى هذا العالم شيئاً فشيئاً ، بعد أن يشعر الطفل بالأمان ...

٣ ـ المنفـــي :

قادم من صحراء مجهولة ؛ يحاول أن يدخل المدينة العتيقة . وهي لا تبتعد عن قدمه اليمنى أكثر من عشرة أمتار . وهو لا يستطيع الدخول ، ربما لأنه لا يملك الوثيقة ؛ تظهره أمام الدركيّ ، فيؤشر عليها ؛ ليدخل إلى الشارع المفضي إلى هناك .

ينظر إليه ، يراه يفتح الوثائق ، يتأكد من خرائط ما ، وتواريخ ما ، ثم يعبرون وهو ينظر إليهم ، تقيده خيوط الحيرة وآلام المستحيل المخنوق بين يدي سيّد الحد ؛ المحفور على جبين شارع لم يبق من زفتته القديمة غير اللون الكالح ٠

فكر في الالتفاف ؛ وعندما قرر أن يفعل ذلك تمهل ، وحدث نفسه : « يجب ألا أورط نفسي ؛ الجملة التي حفظتها عن ظهر قلب ؛ لأبقي رأسي فوق عنقي » ٠ واكتفى بالنظر إلى انسياب الشارع نحو تلك البيوت بعيون تحتاج إلى عدة أرغفة ، يقضم بعض الكسر ، وهو جالس على ناصبة الشارع ؛ يراقب أولئك المارة ؛ وقد أصبحوا من علامات المستحيل ٠٠٠

اقتحم الحوش متذبذباً نحو الوراء ٠٠٠ كل الأشياء هنا كئيبة وبالية ٠٠٠ ولم تعد الأرض أليفة قط ٠٠٠ تزحلق إلى البوابة الخشبية ، وافتتح الباب بقبضة خشنة ، ثم صعد الدّرجات التي لم يعرف عددها قط ؛ وهو الذي تعود أن يعد الحبات عندما يصعد أية سلسلة ٠٠٠

ارتعشت شعرات رأسه ، وتوقف بعضها ٠ وغامت عيونه التي لم تعد تتابع الأشياء الحقيرة ، هنا يقبع العالم السفليّ على حد المفصل الذي اختلفوا عليه : منطقة جرداء !! خالية !! منزوعة !! وكلّ المسميات الغائبة تحضر هنا ٠٠٠

٤ ـ عشتـــار :

كيف تجمعوا ؟! وما العلاقة بينهم ؟! لا شيء معروف قط ٠٠٠ !! هي الهواجس وعلامات الخشوع ، تبحث عن رحمة وقدر يدمر هذه المساحة الحقيرة ، ليدخلوها آمنين ٠٠٠ وقوفاً هم الآن ٠٠٠ على الهامش يتقرفصون ، ويصمتون ، لأنهم يعرفون ما يريدون ٠٠٠

ربما كانت المرأة العجوز أما لهذا الشاب ، وكان ذلك الشاب أباً لهذا الطفل الذي لم يتجاوز عامة الأول على أغلب التقديرات المنظورة من ناحية الشكل ٠

حالة من الرعب والهوس والقذارة ٠٠٠ لكنّ منتجع الخشبة يصبح أكثر نظافة وأمناً في مساحته العلوية المحددة ، والتي لم تتجاوز المترين في أربعة ٠ تتكدس في الزاوية اليمنى أوان قاتمة ، وفي الزاوية اليسرى فراش ، وفي الوسط سجادة قاتمة ، يعود عمرها إلى عشرات السنين ؛ عندما كانت « مزودة » ، ولدت من « النول » الشعبي ، حينا النساء كنّ يتجمعن عليه « عونة » ، لينجزنه في عشرة أيام ، يتلذذن بالشاي والقهوة بعد الكلل ٠٠٠ العجائز يدربن بنات الحي على اللعبة ٠٠٠

والآن كل شيء تغير ؛ فقد زُرع « الشّتيح » ، وغابت في المنفى « عشتار » ٠٠٠

٥ ـ إنهم قادمون بكلبين :

ليلة واحدة قضوها من غير أن يعرفوا كيف ناموا أو ما لسعهم ليلاً ٠٠٠ وربما قضوا عشرات الليالي ٠٠٠

وعند مساء الليلة الثانية ، أو مساء ليلة بعد ليال طويلة . جاءت الملابس الزرقاء الداكنة ، وفي المقدمة كلبان أسودان ؛ يجران حشداً كبيراً خارجاً من المدينة كمولود مشوه إلى حد أرهق بالمراقبة ٠٠٠ يتوقفون حول الشيء البالي المهجور محتاطين انتظاراً لنتائج ؛ يجب أن يتوصل لها الكلبان المحبولان بقبضتي رجلين مغسولي الوجه ٠٠٠ لكن الوجوه

كلّها لا تحمل بريقاً ما ، وربما تحمل بريقاً كثيفاً ، لا يشير إلى شيء ذي بال ، كما تشير تلك البنادق المتأهبة المترقبة لاحداث الموت في لحظة عفوية من غير تمرد ...

الطفل في أحضان العجوز ، والشاب يقف بجوارها تحت شجرة لا يوجد عليها أوراق ، أو هي صفراء متعفنة ، تقعو تحتها قاذورات جمة ؛ أغلبها : من الورق ، والعشب اليابس ، وبقايا حيوانات رممت هنا عبر سنين طويلة ...

هل كان نصف الشجرة داخلاً ضمن الحدود المأكولة ؟! هل كان هناك اختلاف ما حول جذورها ؟! إذن ، ما السبب في غياب عامل النفايات ؟! وأين ذلك المزارع كي يحرك جذرها بالماء ؟! .

٦ ـ ويعجز الكلب عن اتهام الذكورة :

توقف كلب ، وكلب آخر همّ يمارس لعبة الشم ...

الكلبان متفاهمان ... وكلاب الأثر أذكى من كل الكلاب ؛ لذلك دخلت حقل الدرك ... !!

اقترب الكلب المحموم من الشاب ؛ فتحسس ما بين فخذيه ، فدعك أنفه حتى الثمالة ، ودعك خده حتى الهوس ، ثم هدأت أنفاسه حتى الاغماء ، وارتخت أعصابه إلى درجة شعر فيها الرجل المستسلم : أنّ الكلب اللعين أوقعه في مصيبة ما ، وأن مهمته انتهت عند هذا الحد كنهاية المدينة ... لحظات ويدخل القبر ، ولن يعرف نوع التهمة الموجهة إليه ؛ لأن الكلب لا يخيب ظنهم مهما كانت الظروف المستباحة .

إذن ، ستقع الكارثة ، والثواني بطيئة كدرجات البرودة على الجائع ... وتحلقت عيونهم حول الجثة الواقفة تلعق لذة النهاية ...

يخرجون قبيل الغروب لأمر جلل ؛ أقلق لحظات القيلولة العائمة في أجسادهم . هل قُتل سيّد المدينة ؟! أم أنّ هناك خطراً ما يهتك عرض قمة الهرم ؟! ... ولا يَعْرِفُ إذا ما كان فعلاً قد سمع ذلك الدركي يطلب من دركي الكلب أن يتمهل في سحبه ؛ « دعة يتخمر حتى يسقط من الاعياء ؛ لنتأكد هذه المرة مئة بالمئة » . وطالت المدة ، والكلب يعبيء خياشيمه وجيوبه كلها برائحة الذكورة ... هل تحقق الموت ؟! هل على الأضحية أن تنتظر الزمن الذي ينفصل فيه رأسها ؛ كي يقدم قربانا لأي شيء تعشقه هذه الملابس المدمنة على ما تفعل ...

وقرر ألا ينهار ، ألا يرتجف ، ألا يفقد هدوء أعصابه . هو لم يقترف ذنباً غير حبّه ؛ أحبها لتكون له وحده ؛ أحبها مدينة ينام في القيلولة على ناصية شارعها العام ، ولا يجد من يهدم لذة عشقه ... أهلاً بالموت ، أهلاً به عندما يكون أقرب من حبل الوريد ، أهلاً به في لحظة نحتاج فيها إلى ذكرى ؛ كي نموت ونحن رافعو الرؤوس شامخة حد الغـــرق ...

وفجأة انسحب الكلب ، وبحلقت العيون بائسة ، بعد أن تراجعت القيود كلها ، وعادت الأنفاس والدماء إلى الجسد الملائكي ... انقشع الرأس **الأسود** ، فانقشعت معه الحرارة الكلبية . الحمد لله ، الحمد لله ، يا سادة **يا** كرام ، ضُجّوا بأغنية الوجود ، ابتهلوا ، ثم ابتهلوا : الحمد لك ، يا مقدّر النعم ، يا منقذي من بين أيدي أعمدة الجحيم ...

٧ ـ وتعرف كيف تربي :

انزاح مخدراً إلى المرأة العجوز ، تسلق بكسل جسدها الطويل ، شد صدرها بفمه ، فأحنت ظهرها عنوة ، فشم الصدر ، ثم شمه ، ثم شمه ... ودعك أنفه بين نهديها الذابلين إلى حد شعرت فيه بالاختناق . كان الوقت قصيراً ، وعندما سحب رأسه شدت رأسها إلى الأعلى ، وتمسكت بالطفل محتضنة رأسه الصغير ... وتوقف الكلب لحظة مسترقاً نظرة إلى الطفل ، ولم يبد أية محاولة لشمه ...

شم الأرض بعصبية واهتياج ، ثم فتح فمه ، وحمل حفنة من القش القذر بين أسنانه ، كما تفعل الماعز ، وتوجه إلى الدركي ، فدعك فمه في وجه الملابس الزرقاء الداكنة ، فتلطخت بالأشياء والسعار ...

قال الدركي متضاحكاً ، بعد أن اكتست ملامح وجهه قتامة : « الكلب هستر » . رد الدركي صاحب الكلب المتفرج ، وكأن الكلام موجه له : « حدد له علامة جديدة على الأرض لتكون نقطة البداية الجديدة » .

كانت ملامح الابتسامة تبدو واضحة على وجه الطفل الشاحب ، وحينئذ ابتسمت له المرأة ، ثم قبلته ، واحتضنت رأسه الصغير بين صدرها وعنقها المتوهج رطوبة آنذاك ...

التقط الدركي الحجر ، وطعن به وجه الأرض ، فانحفرت حفرة صغيرة ، قرب منها أنف الكلب المغسول بالعرق والأوساخ ، ودعكه في التراب ؛ وهو يلهج بصوت حاقد « ابدأ من هنا يا حقير » ...

هل خفنا أن يتوجه نحونا ؟! هل علموه ألا يفشل ؟! إنهم يحيطون بنا من كل المداخل !! وهي تحتضن عيني الصغير حتى الثمالة ؛ تجاهلتهم لأنها تعرف كيف تربي ؛ عندما ترسم ذلك في مخيلتها ...

٨ ـ نهاية المشهد الأول :

رفع الكلب رأسه فكانت عيناه جمرتين ملتهبتين وسط رأس كبسطار قديـــم ٠

التفت نحو المدينة ، وجرى كالمسحور ، وهو يشده بيد يائسة ٠ ومال إلى شارع فرعي ، يتسلق تلة مشرفة على الحد ٠ وهم يجرون خلفهما كغربان لم تعرف الركض ٠٠٠

قالت المرأة ـ وهي تشرب نفساً عميقاً ، أعاد إلى وجهها خيوطاً من الخضرة « ول" عليه ٠ لم يجد غير صدري ٠ نفسي انقطع ! ٠ وقلت : رحت فيها ! حظ الصغير !! » ٠

قلت لها : الحمد لله على السلامة ٠

قالت : شدة ، وزالت ٠

٩ ـ بداية المشهد الثاني :

توقفوا في الخلاء عند قطعة أرض غير مزروعة في ظهر تلة مقسمة إلى قطعات صغيرة ؛ أسندت بسلاسل من الحجارة الداكنة القمرية ٠٠٠ هناك ظهر شاب يزر بنطاله كأنه قام من التغوط تلك اللحظة ٠٠٠ وكان خجلاً ووجلاً ٠ وكانت الكعكة حارة ، تنسل منها خيوط ساخنة رقيقة ٠ اقترب منها الكلب ، وراح يشمها بحذر شديد ، ودار حولها في عصبية لا تطاق ، وكلهم تجمعوا متحفزين ؛ والكلب يشم ، ويشم ٠٠٠ لم يكن الكلب نفسه ، إنه الكلب الآخر ٠٠٠

تقدم أربعة من الدرك ، وأخذوا يحفرون الأرض كحفاري القبور ، وأخذوا يسحبون بيت الشعر الأسود ... سحبوا قدر مترين ، وما زال جذره مزروعاً في الأرض ، وبدا منسوجاً من شعر الماعز . وللحق فهو مغشوش لأنه مطعم بصوف الغنم .

قال الدركي للشاب : وأخيراً وجدناك !!

رد الشاب : أنا لم أدفن هذا ، ولا أعرف عنه شيئاً .

ـ الكلب لم يشم الأرض ... الكلب شم وسخك . هل تريد يا غبي أن تكذب الكلب ؟!

ـ وأكذب « أبوه » .

نظرت إلى المرأة العجوز ، وقلت لها : « صدفة غريبة » .

قالت : حاول الالتفاف ، وسيعدمونه .

١٠ـ التمويـــه :

عندما حاولنا الدخول إلى الخشة موهنا عليهم كل المداخل . هو مكان أليف ؛ يرينا المدينة !! سندخلها يوماً عندما تعشب الأرض ... تفحصت الباب ، فكان فيه لون أخضر فاتح حتى الثمالة ، وأمعنت النظر في القفل الصدىء ، فاكتشفت فيه شيئاً غريباً ؛ بقايا من اللون الأخضر ، وحينئذ قررت أن أبحث عن اللون الأخضر كي أدخل المدينة ... لأنه وثيقتي الوحيدة .

١٢ يناير ١٩٩٤م/١ شعبان ١٤١٤هـ

عندما تشاكلت مع النمل

لم يفهمني أحد · الناس كلهم حاولوا قتلي ؛ وذلك عندما خرجت من بيتي المتعفن المسلوق بالرطوبة إلى ذلك الشارع ؛ حيث تصورته شيئاً ما أكثر سخونة مما كنت أتصور · قالوا : مجنون !! عاشق !! وقالوا : الكي !! ما الذي فعلوه لي عندما تصورت نفسي غائباً عن الوعي ؟! ربما لا شيء !! ما زال جسدي ينبض كشريان سلك قبيل لحظات من حالة تخثر ما ··· وتصورت دماغي طارت ، لكنها الآن ، والحمد لله ، عادت ··· وقررت ألا أذهب للبرج ، وألا أصعد للدور العاشر ، وألا ألقي بنفسي إلى الأرض المحترقة بالعجلات وبقايا كل ما ينساب من السيارات التي تنتهك الشارع صباحاً ومساءً ··· لقد قررت ألا أنتحر أو أفكر بالانتحار مطلقـــاً ···

* * *

ما زال عقلي ينبض بالحياة ، ما زلت قادراً على التفكير – وخاصة الصاخب منه – في كل الأوقات المناسبة وغير المناسبة ··· لحظات عديدة أشعر فيها أنني ولدت من جديد ولادة من عنقاء أحرقت نفسها قبيل لحظات ··· أحمل نفسي مزهواً بها ، أجلس قرب الطاولة على الكرسي المطاطي المريح ، أسحب قلمي ، وأصب أنفاسه على الجسد الأبيض ، فيتلون الجسد محترقاً إلى حد الرماد ··· كل الأشياء التي أريدها أكتبها ؛ حتى ولو كانت محرمة أو عارية ··· أرتاح إلى حد التلاشي · أقرأ أكثر مما أكتب ، وأفكر أكثر مما أقرأ · وعندما أتعب من كل هذه الأشياء ألهج في غير وعي مني : الناس !! الناس !! ماذا فعل بهم ؟!

إنهم يحاولون قتلي ... هربت ، حاولوا إرغامي ... لكنني رفضت ، هربت ... عشت زمناً في البراري مع ذئب واحد كان قد هرم ؛ لأنه كان يروي الحكمة للذئاب التي هاجرت ، وخرجت من ذلك المكان الذي عشت فيه ثلاثة أيام ، بل ، أنا آسف ، ثلاثة شهور ، وربما ثلاث سنوات ... لا أذكر الآن كم قضيت في الخلاء المتوحش ، أو ربما المؤنس ، بالتحديد ... كل ما أذكره ، الآن هو أنني عدت إلى نفسي عندما تشاكلت مع النمل .

* * *

أوقفت موج النمل بحجر صلد ؛ فتوزع النمل على الجانبين ... نملة واحدة راحت تصعد على الحجر ؛ تصعد ، وتتنزحلق ، تصعد ، وتتزحلق ... صرخت بها بكل ما أملك من قوة صوتية ، شعرت أنها تململت ، لكنها تحدت ... صرخت مرات حتى كدت أسقط مغشياً علي ، لكن النملة لم تتململ ، وتابعت الصعود ، ووجدتها فجأة فوق قمة الصخرة ... وكان الانزياح من القمة إلى الحضيض سهلاً ، إلى درجة شعرت فيها بعبثية هذا الصعود الذي مارسته النملة المغفلة ... وعندما وصلت إلى الأرض كان النمل قد قطع مسافة طويلة مقترباً من خندقه أو مبتعداً عنه ...

ما الذي فعلته النملة ؟!

ما الذي استفادته من ذلك الصعود العبثي ؟!

هل وجدت فوق الصخرة الجنة الموعودة ؟!

هل هو دافع الاستكشاف ؟!

ربمـــــا !! ...

* * *

تحدثت إلى النمل حافظت على عقلي ... حينذاك قررت أن أكون أنيساً ... أعترف لكم أن « الكي » لم يكن السبب المباشر في كوني أكثر من عاقل عندما تحدثت مع النمل ...

قلت للنمل : إنها نملة واحدة ، يا سادة ، فقط نملة واحدة ... صدقوني لا أعرف إن كانت أنثى أو ذكراً . أنا لا استطيع أن أميز بين النمل ... لكنني أستطيع القول إنها كانت نملة عاملة ، وربما كانت من فريق الاستكشاف ... أنا لا أعرف لغة النمل وإلا كنت سألتها هذا السؤال : من أنت يا صاحبة الفخامة ... عبثاً صرخت ... كل محاولاتي ذهبت مجرى الرياح ... ربما لم تتأذى ، لأنها سقطت عدة مرات وأعادت الكرة حتى وصلت ... وهوت بعد أن وصلت ... كل ما أعرفه أنها تأخرت ... وربما تتعرض لحساب ما على هذه المحاولات العابثـــة ...

* * *

النمل ، يا سادة ، اختار الطريق الأسهل ، اختار المسلك الالتفافي ... ماذا يحدث في دماغي ؟! أحياناً لا أعرف شيئاً !! أوقف نفسي ، وأصرخ ، وأقول : ماذا فعلت ، يا مجنون ، هذه هي الطريق الأقرب ، الطريق الأسهل ، وتجاوزتها هيا لفلف ، وهم سيصلون الآن ، وأنت ما زلت في

البداية ... هل أنا مأزوم أم مجنون ؟! صدقوني لم أعد أعرف ماذا أكون !! أخرج من شرنقتي إلى الشارع ، ثم لا ألبث أن أعود هارباً إلى الشرنقة ... عقلي صغير ومنهوك ... لكنه لا يفضل في كل الأحوال أن يكون مهزوماً ... لذلك تصورت الأمور على نحو مقيت : النمل يبحث عن عيشه ... النمل يحافظ على أمنه ... النمل يدخل في « حيص بيص » عندما تسير القدم فوق النهر المنساب ، أو يدخل آكل النمل « خرطومه » إلى داخل القلعة ، أو تجرف المياه القلعة كلها في لحظة باهتـــة ...

١٩٩٣/١٢/٤م

لقاء في الفوج الأخير

هم ... وهي ... :

أوقفوا خيولهم المنهكة على أبواب صدئة تحف بالمدينة ، فبدت وجوههم القمحية مدعوكة بغبار الصحراء ، وعيونهم زائغة هاربة من كل الأشياء المحيطة المألوفة إلى حد الغرابة . وكانت ملابسهم ذات الألوان الرمادية مغسولة مئة مرة في مياه باردة عارية من مسحوق الغسيل .

جاءت عيونها ملبدة بغيوم داكنة محروقة بفعل سنوات عجاف لم يكن قبلها سنوات تزيد على ثلاثين أو خمسين سنة سمان ...

أكلت وجهها عصي الأيام ؛ تجاوزت الستين عاماً بشهور قليلة ؛ اليدان معروقتان يابستان ، والوجه مكسي بنمش أسود طبعته أيام الحصاد تحت وهج الشمس الحارق ... وكلهم في الحارة يعرفون بأنها تعاني من فقر دم مزمن ؛ بدا معها منذ طفولتها عندما كانت تخرج إلى الشارع مجردة من الحياء ...

أخذته المنافي كغيره ، تاركاً الجذور . وحينها تعلقت بالبايب مما أفقدها شهيتها تجاه الأكل ، وقد تمسكت به حتى في أشد الحالات رشحاً وانفلونزا ...

هن ... وهم ... :

كن في الماضي الغابر (النساء !!) يزغردن لأي شيء يخرج عن مألوف الحزن ... وهن الآن يقفن متبلدات الأحاسيس إلا إمرأة واحدة ـ لم تكن في وعيها بكل تأكيد ، كما علقلت السيدة العجوز ـ أطلقت زغرودة مبحوحة جافة نابية ، تكسرت إلى شظايا عندما غابت الزغاريد الأخرى ؛ إذ كان من المفروض أن تعانق الزغرودة الأم قبل أن تموت رنتها الأخيرة ... أما المرأة فقد خجلت عندما داست الأقدام زغرودتها اليتيمة ، وطالعتها الوجوه الفاترة بسيل من علامات التعجب والاستنكار . وقررت أن تنسحب بعد أن أهدرت ماء وجهها الذي احتقن بالدماء ، مشت بعد أن كسرت عينيها إلى فضاء القدمين ، وفي قلبها وكزة العار من التصرف غير اللائق ...

وهم لم يكونوا يعرفون شيئاً ذا بال ؛ يقولونه بعد اغتراب طويل . فاللقاء مشبع بذكريات أليمة قاسية تتوشح الموت والقيود رغم وجود أمل مشبع بالشبع ... وحالهم في الدرجات الدنيا كحال بني هلال لكنهم أكثر غربة نتيجة لتغريباتهم الكثيرة ...

إنهم يعودون بخيول محملة بموت يتلاعب مستهزئاً بأشياء تافهة ؛ تتحسر على حفنة تراب ندية تسرق رطوبة الأرض لجسد متيبس ، أو عناق حبة برتقال على أمها تلهب الروح أملاً في أن يحين زمن الحصاد لتلك الرؤوس الغريبة المدججة بنيران الحديد ...

هم ... وهم ... :

مسافة مكانية قصيرة جداً تفصل بين العائدين والمستقبليين ، وهي في الوقت نفسه صحراء الربع الخالي عندما تكون الوجوه جافة ، غير حميمة تجاه الآخر الذي كان مقدساً في لحظات الخصب النابضة بالأرض حتى الثمالة ...

الأرض لنا ، وهم غرباء ؛ جاؤوا ليسرقوا التراب من بين أفخاذ الجذور الأصلية ، ليضعوه بين سيقانهم المغسولة بدماء مذبوحة قربانا لأساطير اختلقوها من أجل لملمة الضياع واللاوجود ...

اللعنة عليهم ؛ لأنهم حولوهم إلى اللاوجود من أجل اللاوجود ... اللعنة !! هذه الشتيمة لن تقدم ولا تؤخر ! ماذا بامكانها أن تفعل في وجه جهنم الحمراء كما تقول جدتي ... أما أمي فهي تردد دائماً « الكف لا تناطح المخرز » ... وهم يقولون : « نضع اليد في اليد ، لكم المدينة العاصية ، ولنا مدينة الرب عاصمة للأبد ... » .

اللعنة على أولئك وعلى هؤلاء ...

كانت القامات محنية ، والخيول جديدة من غير تسييف ، ومدخل المدينة معطراً برائحة النعناع والبابونج والشيح والزعتر ؛ وقد علقت فوقه فوطة بيضاء جديدة ، يعلن فيها رئيس البلدية القديم بداية العهد الجديد ، مؤكداً حرارة اللقاء ... والناس لم يخرجوا إلا بدافع الفضول ، أو احتساء صور الذبول من قصعة طابور عاشر ، متواضع ، لم يشعر فيه المستقبلون بأهمية العائدين ...

هي ... وهو ... :

تفتقت عيونها عن سهام تناثرت نحو الاتجاهات كلها فهذا الفوج العاشر !! بل ربما الأخير ؛ يدخل المدينة ، ويجب أن تجده هذه المرة ؛ يئست لأنها توقعت قدومة في الأفواج الأولى ...

الفوج العاشر ؟!! ألهذه الدرجة ؟!! ثلاثون سنة من الانتظار ويكون اللقاء في الفوج العاشر ...

منعوها من الخروج تجاه الأفواج الخمسة الأولى . وقالت : « الذي صبر الكثير عليه أن يصبر القليل » . وتوقعت أن يأتي هو إليها ؛ أن يؤكد حضوره بشيء ما . ولكنه لم يفعل ، وليس من المعقول أن يخون « عشرة العمر » ، وهنا لعنت الشيطان ، لأنها تاهت ذهنياً ، وقصدت « انتظارة العمر » . حوشت فيها كل ذكرياتها ، وقررت ألا تسمع ذكرياته ، لأنها كانت تشعر بها كلها ؛ وهو في البراري بين الكهوف والصخور ... وقفزت من عينيها دمعتين ، مسحتهما بطرف « الغدفة البيضاء » ... ونظرت نحو الاتجاهات كلها متفرسة في وجوه القادمين ...

هل ضاعت ملامحه ، ولم تعد قادرة على اكتشافها بين الوجوه المتشابهة في الجفاف ، والانهيار ، وعلامات عضعضة الزمن ، وأسطر توقعات الموت ، وذل عاجز أمام انتصار الآخرين منتشين بعد انتصارات كثيرة جعلت شجر الأرض يتيه في التيه من غير ماء ...

كانت متأكدة بأنه لم يمت ، وأنه عائد مع العائدين ...

وعندما كانوا يداعبونها متسائلين : « كيف ستعرفينه ؟! » ٠ كانت ترد عليهم في غنج طفولي لا ينتمي إلى عالم الشهوة قط :

« وهل يخفى القمر ٠٠٠ !! » ٠

سنوات مرت كسحابة صيف ٠ كانت الأشياء فيها تقلب رأساً على عقب ، وتجري الرياح بما لا تشتهي السفن ٠ وماتت الزغاريد في الحناجر – إلا في لحظات الموت الكريم – تاركة الفضاء الأصفر مشبعاً بذكريات أليمة ، تشنق الآن على أعواد من ثقاب متعفن ٠٠٠

هو ٠٠٠ وهي ٠٠٠ :

كانت ملامحه باهتة في الصفوف الخلفية من الطابور العاشر ؛ وهي ملامح مغسولة ثلاثة آلاف مرة في مياه مالحة على شاطىء بحر لم تدخله مياه الأنهار الباردة ٠٠٠ بقايا ملامح ، وبقايا سمرة فاتحة ، وبقايا جسد ، وبقايا عينين ذابلتين ٠٠٠ وفضاء الشعر مساحة بيضاء أو جرداء دالة بكل تأكيد على قساوة غياب الزمن الرحب ، وحضور بدايات دخول جادة في عالم الموت (اللازمن) ٠٠٠

هل هو في الستينيات من عمره ؟! أم تجاوز المئة عام ؟! أم أنه حالة الموت معطلة ٠٠٠ إنه بقايا هشة مغسولة باغتراب حقيقي حبله ثلاثون عاماً ٠٠٠ !! كيف تغيرت تلك الحالة الطازجة إلى هذه الدرجة من اللاجسد ٠٠٠ واللاوجود ٠٠٠ ؟! واستغفرت خالقها ، وأنابت إليه ٠٠٠

كانت عيناه مرهقتين و « عيونها » متوهجة مشتعلة ... ولم تستطع فطرتها الذكية أن تحدد إن كان هو الآخر يبحث عنها . وقررت ألا تنتظر ؛ قررت أن تعبر المحيط ، أن تشق الصفوف لكي تصل إليه ، وتقبله قبلة حارة ؛ تعيد له كيانه المندثر في الطابور العاشر ... وكانت متأكدة من أنها لن تفعل ذلك لو كان في الطابور الثالث ، حينئذ ستكون ملامحه متوهجة إلى درجة الشمس ... وربما يبتعد عنها بعد نظرة إشفاق ، تتلوها لحظة قصيرة من الذكرى المالحة ...

تداخـــل :

سارت مسافات طويلة وهـي تشم في ملابسه رائحـة الغياب ، والاغتراب ، والطيبة ، والحظ المتعثر في الطابور العاشر ... وقد تهيأ لها أنها لامست آثار الجروح على جسد خشن مدعوك ببقع سوداء لم توجد في فضاءات البداية :

الفوج والفوج والفوج والفوج والفوج ...

وتجرى الدموع عندما تتكسر أقفال المدينة للحظات !!

قبلته على رأسه فكان جسد « هبل خزاعة » ، لولا أنه تململ ، وسالت دموعه في مجاريها كأنهار لم تعرف النضوب قط ، ولم تعرف الخوف قط ، ولم تجاف الموت قط ... !!

وسالت عيونها أنهاراً قواربها ذكريات ؛ لم تكن تعني الآن غير أجنحة مكسرة ، تشمع بها قوارب المدينة البائسة ، حيث لا شيء يرد

الروح للجسد بعد أن تغيب الأرض عن عيون أطفالها المولهين ... ولم تكن المدينة البائسة حيث لا شيء يرد الروح للجسد ، بعد أن تغيب الأرض عن عيون أطفالها المولهين ... ولم تكن المدينة غير بنايات متشظية الأقفال ، يدخلونها بوجوه مكفهرة وعيون حاقدة ، ويكبسون أيديهم على البنادق باحثين عن أرواح تمردت على القيود وأعلنت العصيان بحثاً عن وطن ساكن في القلوب ما دامت تنبض بسر الأرض لأجل أن تعود كما كانت بيارة لنا لا لهم ...

١٩٩٤/٢/١٤م

فنتازيا القفز على جدار من خشب

أخذت تنظر في الصور القديمة ... تبحلق في كل صورة على حدة ... ترجع بذاكرتها إلى الماضي الذي سلب منها كل شيء ... ولم يبق لها غير هذه الصور التي تحتفظ بها في لفة ملابسها ... إنها تعود إلى الماضي المنهوب ... في الصورة الأولى كانت تقف قرب الجدار الخشبي ، تنظر إلى عالم مجهول ... وفي الصورة الثانية كانت تنظر إلى البيت الذي سقط على عائلتها من جراء القذيفة التي غافلتها عندما دخلت في « الطابون » المجاور للبيت كي تخبز الخبز في ساعة الصباح المبكر ... وفي الثالثة كانت تعانق الزوج ... وحولهما ثلاثة أولاد وبنتان ... وفي الرابعة كانت تجلس بجانب البيت المتواضع الذي قتلته القذيفة ... وهنا تذكر حرارة الشمس في كانون ... والجلوس تحت الشمس في الشتاء هو المتعة الحقيقية ... وهذه الصور الأربعة هي الذاكرة الوحيدة التي تربطها بالماضي ... خيره وشره ...

* * *

تنقلت في شوارع القرية لا تعرف إلى أين تذهب ... فهي تفقد كل شيء ... ولم تعد تبالي بشيء ... فالفاجعة كانت أكبر من ضبط الأعصاب ... وكيف تنسى اللحظة التي جاء فيها المختار يعرض عليها الزواج ...

ـ اسمعي يا فاطمة ، الحي أبقى من الميت ... أنت الآن وحيدة ، وتحتاجين إلى الجدار الذي يسندك . الله يرحم الميت . وأنا ـ كما

تعرفين ـ توفيت زوجتي واحتاج إلى المرأة التي ترعاني وترعى الأولاد والبيـــت ٠

ـ كيف أتزوج يا مختار ؟!! إن المصيبة جاءت في الرأس ٠٠٠ وحظي معثر ، لو مكثت مع الأولاد وأبوهم لكنت الآن «مرتاح» من هم الدنيا ٠٠٠

ـ أنت حرة ٠٠٠ فأنت تعرفين كم أعزك ٠٠٠ وأبحث عن راحتك ٠٠٠ والخيار في يدك وتستطيعين الموافقة على الزواج إذا أردت ٠٠٠ وفكري في الأمر ٠٠٠

* * *

لم تفكر في الزواج ٠٠٠ ولكنها تفكر في البيت الذي يسترها ٠٠٠ الناس بدأت تخاف مـن الأحداث ٠٠٠ وأخذوا يهربون إلى المناطق الآمنة ٠٠٠ وهي رفضت الدعوات لايوائها حتى تتدبر أمرها ٠٠٠ وبقيت تنام تحت الشجر قرب البيت المنسوف ٠٠٠ في العراء في الوقت الذي انتشرت فيه اللصوصية والفتن التي شجعها الانجليز ٠٠٠

* * *

كان أهلها يقيمون في الشرق ٠٠٠ انسلت من بينهم كما تنسل الشعرة من العجين ، وهامت على وجهها في الخلاء ٠٠٠ تاركة نفسها فريسة سهلة للضباع وقطاع الطرق ٠٠٠ وصادفها محمد سلامة عندما كان في طريقه إلى معان قادماً من بيت لحم ٠٠٠

هربت من بين يديه ٠٠٠ وصرخت ٠٠٠ الله يكفيني شرك ٠٠٠ لا تخافي عليك الله وأمان الله ٠٠٠ أنت مثل أختي وأكثر ٠٠٠ واطمأنت ٠٠٠

- وين رايحة يا نشمية ؟

- لا أعرف ، وأرض الله واسعة .

- من يخرج في هذا الليل ، يكون وراءه خطب كبير .

- إن أهلي يجبروني على الزواج من ابن عمي ... وكان أمامي أن أقتل نفسي أو أهيم على وجهي ... واخترت الموت في البراري .

- أنا ذاهب إلى الشرق منأجل أن اشتري المؤن ... فالاضراب العام يسود فلسطين ... واليهود والانجليز لم يتركوا شيئاً نأكله ... ولك الخيار في أن تأتي معي أو تذهبي إلى حيث تشائين ... وفي كل الأحوال أنت مثل أختي ... وذهبت معه ...

* * *

كان يراقبها جيداً ليرى إن كانت صادقة أم كاذبة ... فكل العلامات تظهر أنها عانت بما فيه الكفاية ... وكانت تنظر في الأرض عندما تمر بالوجوه تخاف أن يعرفها شخص ما من أقاربها ... فيكون مصيرها الموت ... وما أن رأت وجه زوج عمتها مسعود حتى التصقت بالرجل ...

- علينا أن نخرج من هنا ، وإلا قتلوني وقتلوك ...

وخرجا من شوارع الشرق متوجهين إلى فلسطين ...

قالت لمحمد سلامة : هل أنت متزوج ؟

- لا .

ولم تقل شيئاً ... وبفطرته الذكية عرف محمد أنها تعرض عليه ان يتزوجها .

ـ أنا أعرف أن العودة إلى قريتي مع إمرأة قد تثير شكوك الناس ... واذا كنتِ راغبة فاني ساخبرهم أنك زوجتي ... فقط أمام الناس ... وأنت صاحبة الحق في تقرير هذا الأمر .

احمر وجهها ... فنظرت إليه خجلة ... إنه شهم ... فما المانع من أن اتزوجه ما دام غير متزوج ...

ـ إني أرفض أن أكون زوجة لك أمام الناس ...

وفهم محمد ماذا تعني ... وفكر ... ثم قرر أن يطلب منها الزواج ...

ـ لا يوجد عندي مانع من الزواج بك ... المهم في الأمر أن تقبلي هذا الأمر باختيار ... وإلا فأنت مثل أختي وأكثر ...

لم تقل شيئاً فعرف أنها وافقت ... وقبل وصوله إلى القرية ... عقد عليها الصفاح في المدينة ...

* * *

فها هي قد تزوجت ... تعيش مع زوجها مستورة الحال ... لا تهمل الشوق إلى أهلها الذين أصروا على تزويجها من ابن عمها تنفيذاً لما تم تقريره لحظة ولادتها ... فهي « عطية جورة » له ... وهو رديء يعاقر الخمرة مع الغجريات ... ويقطع الطرق ... فيسرق وينهب ...

كانت نعم الزوجة ... انجبت الأطفال ... وعرفت في القرية بالغريبة ... وقد تزوجها محمد سلامة في الشرق ... هذا كل ما يعرفه أهل القرية عن حياتها الماضية ...

* * *

اقتربت ساعة الصفر ... وبدأت الحرب العالمية الثانية ... اخرجت الصور الأربعة من بين الأوراق التي دفنها زوجها في تراب الأرض ... وتزوجت المختار فظهر الفرق الشاسع بينه وبين الحبيب المدفون تحت الحجارة ... إن كرشه يبرز إلى الأمام ... وعيونه جاحظه ... وصوته أجش ... ومعدته لا تهجع ... وسوطه يلهب به قفاها كلما حاولت البكاء على الماضي ... أو ذكرت زوجها وابناءها .

ـ أنت بنت حـرام لا تقدرين النعمة ... عطفت عليك ولميتك مـن الشوارع ... لا أصل ولا فصل ... وجعلتك ست بيت ... وأنت مصرة على رفض النعمة ...

اكتفت بالصمت ... فما زال في وجهها الجمال الذي يجعل المختار يخفف من حدة سوطه ليبقي على حياتها ... ومن جانبها لم تحاول التدخل في حياة المختار ... يأتون إليه الخواجات في الليل ... وتقدم الشاي والقهوة دون أن تعرف ماذا يجري في المضافة ...

وفي يوم من الأيام غاب المختار عن القرية ... فزارتها جارتها أم أسعد ...

- يظهر أنك لا تعرفين ، يا أختي يا فاطمة ، أن المختار سمسار يشتري الأراضي لليهود ... ويخبر الانجليز عن الثوار ... فهو الذي أتى بهم إلى القرية ودلهم على حامد ابن صبحة ... فاخذوه ... ومن يومها لم نسمع عنه شيئاً ... الله يكون بعون أم حامد ...

وخرجت أم أسعد وتركت خلفها إمرأة تئن حسرة على الماضي ... اليهود والانجليز يقتلون زوجها وأولادها ... والمختار سمسار وجاسوس لليهود والانجليز ...

- اسمع يا مختار الخواجات الذين يأتون إلى بيتنا يوهد وانجليز ... والناس في القرية يقولون عنك سمسار وجاسوس ...

- وبدأت تشكين في حياتي يا (...) وماذا قالت لك أيضاً أم أسعد ... هأ ... هأ ... وماذا قال أيضاً الناس ... هل قالوا لك : المختار ناوي يتزوج مـن بنات الخواجات ... وألهب بالسوط جسدهـا الذابل ...

وبعد أن أفرغ كل قذاراته على جسدها ... وقف ينظر الى كرشه المنتفخ ويلوح بالسوط مهدداً ...

- اذا سمعت في يوم من الأيام أنك تجلسين مع أهل القرية سأجعل عظامك طحيناً ... ولن يسأل عنك أحد ... وهل تظنينني لا أعرف أنك خطيفة محمد سلامة ... وإلا أين أهلك ؟ ... لم أسمع عنهم شيئاً ...

أحاطت بها الصواعق بعد أن سمعت كلامه ... فظهر لها أن الحياة الحقيقية لا تقبل بأقل من الموت مقابل البقاء مع هذا الجشع المتجسد في الخيانة ... والسوط ... وفكرت في الانتقام لزوجها وأولادها وجسدها المشطر بعلامات السوط ...

* * *

تأزمت الأحداث في فلسطين وأخذت الكفة تميل لصالح الانجليز واليهود ... وينسحب الانجليز من بعض مناطق الانتداب تاركين الفرصة لليهود كي يحققوا الدولة الصهيونية ... وتفقد الثورة الفلسطينية القدرة على تحقيق أي نصر على اليهود والانجليز ... وتفشل الجيوش العربية ... وتبدأ حركة اللاجئين ... وتتوالى الأخبار عن تصفية العملاء ... فتروي فاطمة السكين من دم المختار ...

وتخرج من قرية عجوز متوجهة إلى مخيم الفوار ... حيث تأخذ زاوية من زوايا المخيم ... تنام فيها ... وتأكل من بيع الحلوى للصغار ... وما تحصل عليه من السيارات الكبيرة التي توزع الطحين والسكر والاسميد على اللاجئين ...

ـ لله يا محسنين ... الله يجعل لك يا ابني في كل خطوة أجر ... لله يا محسنين .

* * *

لا أعرف لماذا جلست بجانبها ... فهي تجلس على ناصية الشارع قرب المسجد الحسيني في مدينة عمان .

ـ ولماذا تحتفظين بهذه الصور ؟!!

إنها الماضي يا بني ... الماضي الذي لم نر فيه غير فرحة السراب ... وانفجار القذيفة ... وسطوة سوط المختار ... والهزيمة في مخيم الفوار ...

ـ ألم تحاولي العودة إلى أهلك ... ؟

ـ عندما خرجت من المخيم بعد أن احتله اليهود ، بحثت عن أهلي ...

كل شيء تغير ... عارهم مات ... وعودتي تحيي العار ... والناس نسوا الحكاية القديمة ... ولا يريدون العودة إلى الماضي ... فعدت إلى عمان لأموت كما مات العار ...

ـ وهل أخبرتهم بما جرى لك ؟

ـ لا .

ـ أخطأتِ .

ـ لن يقتنع الناس بما أقول ... ولا يوجد معي غير الصور ... !!

أظنها لم تعد ترى من الصور شيئاً ... فعندما نظرت إلى الصور وجدت فيها بقايا مشوهة لمعالم قديمة ... والمرأة جاوزت الستين عاماً ...

وعادت تقول لله يا محسنين لله يا محسنين ...

* * *

سنوات قليلة مرت ؛ كانت توقيعاتها قليلة على أولئك الذين يأكلون الآيس كريم بملاعق ذهب ... أما المشردون في الشوارع فتحسب عندهم الدقائق بالساعات ...

كيف مرت سنواتها الخمس التي غبت فيها عن المدينة ؟! ... أعود ... أمسكت الجريدة ، فجاء اسمها بارداً ؛ لا يعني أكثر من مساحة حبر كانت مثبتة في الأوراق الرسمية :

« فاطمة حسن الطفلاني أرملة المرحوم محمد سلامة البحري » .

هذا هو اسمها !! ما زلت أذكره جيداً . فاذا كنت قد نسيت أو تناسيت تفاصيل اللقاء الهارب ، فانه يعود الآن بكل مأساته مع مساحة من الحبر حقيرة ... هل سأجدها في مكانها ، أم أنها دخلت العالم السفلي ، بعد أن حمل الجثمان أربعة رجال فقط ، عارياً من المشيعين . وعندما انتهوا من هيل التراب عليه ، عادوا ليأخذوا من البلدية ثمناً زهيداً ؟! ...

هل أنا أتمنى لها الموت ، لترتاح مما هي فيه ... وسأذهب إلى المقبرة العامة لأقرأ الفاتحة على قبور الموتى من أجلها ؟! ...

* * *

كان وجودها في المكان نفسه مفاجأة عادية لم تكن تعني غير غياب المـــوت ...

ـ أفرحي ، يا ستي ، اسمك في « الجريد » ، ستعودين إلى الوطن !!

ـ مين ؟!

ـ اسمك في « الجريدة » ، ستعودين إلى الوطن !!

ـ علّ صوتك ، سمعي ثقيل !!

ـ ستعودين إلى البلاد !!

ـ أي هو ظل فيها بلاد ؟!

ـ على الأقل تمتعين نظرك في أيام حلوة !!

ـ بعد ما راح العمر ما ظل فيها متعة !!

ـ أنا ، ممكن ، أساعدك !!

ـ هذه جلدتي حتى أموت ، خلوني مستورة حتى يسترد وديعته !!

* * *

وذهبت محاولاتي عبثاً ... كنت غير مقتنع بدوري في المحاولة ، فقط تشبثت في الأمر لاقتناعي بعدم وصولهم إليها . وقلت : مهمتي أن أحاول حتى لا أتهم نفسي بالخيانة ... لم أخسر شيئاً ... لقد تركتها تدعو لي بالخير ، وصلاح الحال ... و « يبعد عنك شر أولاد الحرام » ...

أولاد الحرام ... أولاد الحرام ... هذا ما كانت تحذرني منه أمي ... وعندما كنت أسألها عن مفهومها لأولاد الحرام كانت تقول :

« هم الذين صاروا عبيد الحرام ، وأنت متعلم وتعرف ما هو الحرام » .

سرت في الشوارع تائها ، أستعيد الذكريات ـ التي لم ترو في كتاب ـ عن تلك المرأة ، صاحبة الأشياء العتيقة وفنتازيا الحركة ... التي ربما سكنت الآن ـ اعني في هذا الزمن المتأخر نسبياً ـ قبراً أكثر دفئاً من برودة الشوارع ، وصدقات المارة الممتلئة بشكوك وجود عدة بيوت وعقارات عند تلك « المرأة المحترفة لمهنة التسول » ...

ايقاعات خمسة لمدينتين

١ ـ شاعر جوال :

ـ أنا سيدهما ... بل هو سيدهما ... أنت السيد ... نحن أسياد ... هم أسياد ... كلنا أسياد ... لا لا لا لسنا أسيادهما ...

ـ هل جننت ؟! اقتل الآن هذيانك ، وإلا قطعوا رأسك ... !!

ـ لا أدري ، دعوني أفكر ، ها أنا ألقي عصاي ، وأجلس تحت هذه الشجرة المشمسة ... ربما هي شجرة زيتون زرعها جدي في عهد احتلال الرومان لبلادنا ... سأفكر ... أكنا الأسياد أم سنكون ... ؟! اتركوني الآن لوحدي ... يجب علي أن أسامر وحدي هامساً ، وأقول لوحدي : ما رأيك ، يا وحدي : ما رأيك ، يا وحدي ، فيما يحدث ، وأنت لا تعرف ما يحدث ؟! لا بل تعرف ، بالوحي ، كل ما يحدث ، خذ قراراً يا سيدي ؛ يا وحدي .

هل بدأوا من بداية الخلق ؛ من صحراء ؛ من جسد رملي تمرغ في ملوحة الماء ؟! هل مشوا إلى نهاية الخلق ؛ إلى قطعة سادومية ضاجعها ماء يقتل كل الأحياء ... فلا ماء يروي العطاش ، ولا خضرة تعشب الصدور اليابسة ؟! ... واحسرتاه على موتنا الحزين ، واحسرتاه علينا عندما نبتهل في الليالي الحالكة ؛ نصلي كل الأوقات والنوافل ، ونبكي مواجعنا ؛ لأنهم لا يبيحون لنا أن نطأ تراباً نمت فيه جذورنا باكية من وطئهم ، ومن حشرهم كل الأطلال في « عهد قديم » .

يا نساء الحي ، لا تشققن الثياب ، واتركن الشوارع خالية ، وادخلن في البيوت الساكنة ؛ من دخل بيته فهو آمن ، ومن دخل بيت « دون كيشوت » فهو آمن ... ولا أمن لكل الشعراء الجوالين ...

٢ ـ الدون كيشوت :

ها هو يعود إلى المدينة التي علقت مناشفها على حبال الغسيل المدعوكة بالرماد ... تمطت دابته ذات الألوان السبعة في أرجل المدينة الصحراوية ، وتوقفت على أطراف الحي المغمور بهذيان محموم ؛ نؤيد ، لا نؤيد ، وبعد أن ترجل ترامت الوجوه الصفراء المبتسمة رعباً على الوجه الأسود الأشيب ... وفقعت الألوان كلها عندما التفتت كل العيون نحو تلة عجوز وقف عليها جنود ينظرون إلى الحفل ببلادة ؛ يراقبون شيئاً لا يحبونه قط ...

سارت المواكب في الشوارع ، تحمل الخواء وكل التواريخ المغرقة بالرعب والمجازر ... ولكنهم كانوا أبطالاً ، وكانوا يقاتلون ...

ما لهؤلاء المقيمين لا يضحكون لهؤلاء الفاتحين ؟! أهكذا كنا نتخليهم ؟! أهكذا تكون الشوارع أرملة ، ولا شيء غير العيون تخترق كل الحواجز ... ؟! ويهمس شيخ في الستين : ليتهم لم يعودوا ، إنهم مكيلون بالوسواس الخناس ، فيدخل غرفة الانعاش ، ويقال هي أزمة من فرح ...

ها هو يترجل عن فرسه المستعار ، فتأتيه العيون الذابلة تلهج بالصفرة وبالحمد لله على السلامة ... وانسلوا لينام الفارس نومة عميقة ؛ لم ينمها منذ زمن غابر داثر مديد ... أما البيوت المتراصة فقد تكفنت بحزن مشدود إلى تلك التلة المقهورة ؛ ينامون هانئين ، وقد ملوا هموم المراقبة والضحكات الفاترة على علم يحمل كل الألوان يشعر بالاختناق عندما ينظر نحو علم الحصار ... يغفي « الدون كيشوت » قلقاً ... يحلم بالسيوف ، ينتهك فيها حرمة القيود ... وينتشي ثم ينتشي عندما يحلم بكل الاناث ...

٣ ـ أميرة :

هذه المدينة تفضي إلى تلك المدينة ... ومن تلك تدخلين إلى المدينة الأخرى ... ومن الأخرى تدخلين إلى المدينة الرابعة ... وهكذا ، وهكذا ، حتى تدخلي المدينة التاسعة والثلاثين ... وحاذري أن تدخلي المدينة الأربعين ... لأنك لو فتحت بابها فستجدين كل المدن المشتهاة في انتظارك ... وعندما تدخلين تشعرين بالتمرد على كل القيود ، وتصبحين شجرة الزيتون ...

لا تخافي ؛ سيقولون لك مع كل الضوضاء التي تصاحب شغب الأقفال : « إنك أتيت إلى قبرك برجليك ، وكنت المخيرة ... هيا ادخلي في عالمك السفلي ، لتكوني عظاماً شمطاء ، لا تروي قصصاً تكتشفينها في تلك المدن داخل المدينة .

من يخبرنا قصة أميرة ؟!!

قال الراوي :

« اختطف الغول أميرة ... يقال إنه تحول إلى أمير ... لم ينبغ التحول من ماء آسن ، بل من ماء عذب فرات ... أحبها ، فأخذها ... وعاشت معه في قصر يانع مهجور ... وخوفاً من اكتئابها بالملل أعطاها أربعين مفتاحاً ... يقال إنها مفاتيح سنوات التيه » ...

طلب منها أن تفتح في كل عام مدينة ، فتسلي نفسها ، وتتركه يمارس فن الامارة ... وقال لها : « حاذري يا حبيبتي أن تعودي مرة أخرى إلى تلك الغواية ، وتفتحي مدينة النهاية ... عودي وافتحي مدنك منذ البداية » ...

وقفت أمامها ... ثم عادت إلى مهجعها البارد ... ورجعت إليها ... فشدها الفضول الغريب وسحر التفاحة ... عادت ... رجعت ... عادت ... رجعت ... أدخلت المفتاح في القفل ... وقررت أن تمارس لعبة الخطر ... وقبل أن تشده انفتح ... وكان الرعب شديداً ، وخفق القلب بالرعود والمغامرة ... دخلت ... خطوتين إلى الأمام ، خطوة إلى الوراء ... وجاء الصوت كأنه صوت سيد القصر : « إذا كنت أنت أميرة ، فعودي قبل أن تندمي » .

رأت جثثاً ... أطرافاً بشرية ... رؤوساً كسنابل القمح الفتية ... رأت كل الأشياء التي غابت عنها منذ تسعة وثلاثين عاماً ... لم تعد

تنسى شيئاً ... كانت « مضبوعة » ... وعندما سال دمها من صفحة الجبين ، تذكرت كل الأشياء ... فوجدت نفسها أمام مغارة عنقها كعنق الزجاجة ، يأتي منها صوت يتطاحن خشونة : « إذا كنت أنت أميرة فادخلي وحاذري » ...

وفي لحظة موت « الضبعة » قررت أن تعود لتنتظر فارسها ... تجدل له شعرها الأسود ، كي يصعد فوق الحصار ، ويزيل الحجب ... هي تخاتل ... وهو يهز خيوط الظلام ... يعود بها بين يديه إلى المدينة ... إلى كل المدن ... يرسمان عهداً جديداً ... تفجرت فيه الوجوه بلون الحنون ورائحة النعناع والزعتر ...

٤ ـ خرافيـــة :

كانت السماء صافية زرقاء إلى درجة يتخيل فيها المرء حشداً كبيراً من المخلوقات الكونية ، يقوم بوز الحطب تحت قرص الشمس ، لتذويب كل الأشياء التي تعكر الصفحة الزرقاء ... أما الريح فقد همدت مختبئة في جبال القوقاز ، بعد أن فشلت في إطفاء توقد الشمس ... ويبدو أن وجه البحار الثلاثة كان نائماً خلف أبواب سبعة ... والناس انحشروا في بيوتهم ، ولم يكن في الشوارع غير المارة ...

هبطت الطائرة الأولى ، فنزل منها أناس يلبسون ملابس جديدة ... ثم هبطت الطائرة الثانية ، وكانت أصغر حجماً ، فنزل منها أناس يلبسون

ملابس جديدة ... وعندما هبطت الطائرة الثالثة كان الحراس يتناثرون كحبات « البوشار » ... وتجمعت سيارات ذات ألوان مبهجة ، وحينها اختلط الحابل بالنابل ، ولم يعد الناس يدركون ماذا يحدث في طرف المدينة التائه على شاطىء الصحراء ... وتجمعوا حول التلفاز ...

سارت المواكب في جوف المدينة ... ثم انتقلت إلى المدينة الثانية ... فتجمهر الناس وتفرقوا ... وفي الصباح كانت الآلات الثقيلة تحفر لبناء عمارة ضخمة على ناصية الشارع الرئيس « المهمل سابقاً » ... لوحة كبيرة كتب عليها « مركز المدائن التجاري والسكني ، تحت إشراف مكتب سعيد المهاجر للانشاء والتعمير » ... وعلى مقربة من المركز وقف شرطي بملابس جديدة ، يبتسم لكل المارين من أمامه أو من ورائه ... وعلى جبل هناك كانت قاعدة الأمن تراقب بالمنظار مركز المدائن وهو يعلو حجراً حجراً ...

٥ ـ هـــل :

تلك الليلة كانت فيها كل النجوم معبأة في أكياس خضراء محروقة ، تلبدت تحتها طبقات من الغيوم الداكنة ، فكان البرد أسطورياً يجمد كل الأحياء ... والريح تلعب بالرماد ، وتعزف أوتار البحار الثلاثة ؛ تعبث بالرمال والصخور ...

انسلوا من حصونهم ، يلبسون الجلود ، مدججين بالقنابل ... حاصروا مركز المدائن ، ثم أحرقوه ...

هب الخلق من كل البيوت المستباحة ؛ هاربين شرقاً كقطار طويل بلا نهاية ... وفي المياه الهائجة أفاق من نومه كالمصعوق ؛ هارباً من الاختناق لأنه لا يعرف « فن العوم » ... وصرخ في كل الأمواج المتلاحمة بصوت متكسر جاف : هل هذا كله حدث ؟!!

١٩٩٣/١١/٨م

الليل ... والزغرودة

الليل يهذي بهدوئه المشدود في عنق أكوام الزبالة ... يرتوي بالصمت ... واحتراقات الجروح السرمدية ... والصراخ فيه مكبوت حتى الثمالة ...

يا تلك الجروح ... أين فيك صرخة الولادة ... وقشعريرة الحياة وصرخة الطفل لحظة الولادة ... أين فيك صرخة الولادة ... أين حزنك المنبوذ في قعر هاوية البحث عن الشهادة ... أين صرخة الديك قبيل الفجر متى تقوم القيامة ؟! ... ويصلي اليوم لعشق الغد بعد الولادة ؟! ...

وفي الليل قطط تتشبث بالأشياء ... تلتصق في موعدها الشباطي ... تشم روائح بقايا الطعام القليل ... فتهتز أوراق الطفل المبعثرة ... والأواني المنزلية العتيقة ... وينشب العراك ... فينبح الكلب ... ثم يعود الهدوء مشدوداً إلى صخرة صماء ... يا صخرة صماء أين فيك صرخة الولادة ؟! ... أين عشقك لغير غانية ؟! ...

* * *

ينسحب من قرب أكوام الزبالة ... يبحث عن سرداب يجر فيه قدميه المنهكين ... إنه يعاف تكرار المشي في الظلام ... وتصخب الدماء في جسده النحيل ... وتشرد الفكرة في السماء ... في الحزن

المذبوح قربانا لاله فرعون وسيد يحمل السيادة منذ الولادة ... وتعود الفكرة ترقص مع الأرض وهكذا ... يوم ... يومان ... مئة ... الزمن لا يتحدد بالساعات ... فساعته القديمة تخلى عنها بعد أن تخلت عنه ... وسار في الشوارع الضيقة ... يبحث عن المجهول في المجهول ... وعن قراءة الكتاب في الشوارع المظلمة ... والزمن لا يتحدد بالساعات ... كل الأشياء تنهار في الشارع المظلم إلا القطط ... تبقى تبحث عن أكوام الزبالة ... وفي الزبالة ...

لماذا يا أبي ؟ ... لماذا يا أبي ؟ ...

تخرجت من الجامعة ... وحفيت أقدامي في البحث عن العمل ... ولا عمل ... كان ابراهيم شاب مفتول العضلات قال لي عندما قابلته في السجن أنه لص لا يسرق إلا اسرائيل ... وقد سجن لأنه سرق أغنام شارون ... وقد اعتبرت السرقة سياسة ... وفكرت بها ... وتطردني يا أبي من البيت ... وتقول سنرى من هو الرجل في البيت ... ليست الرجولة يا أبي في النقود الضائعة ... لن أعمل على عصيانك يا أبي ... لن أثيرك يا أبي ... ولن أهزم الرجولة القديمة ... لم يبق عير العائلة ... أو البقايا ... لن نفترق يا أبي ليسودوا ...

* * *

الليل وأكوام الزبالة والسراديب ... آه يا أبي ... إنه البحث عن رحمة الخبز المقتول ... لن تجتمع البطالة والعشق إلا في الثورة ... الثورة يا أبي ... إنك من زمن يقدس فحولة العمل مع السور المهدم ...

ونقتل في ضياع السور ... وبنو قريظة يحملون الصخرة في وضح النهار ... لم يعد في الأمر خدعة ... آه يا أبي ...

* * *

والليل يندف بالمطر ... وتهب ريح باردة تخلخل جوف عظام ...

لم يعد أحمد ...

والزمن لا يحسب بالساعات ...

قالت أم أحمد : الولد حساس ... وأنت تسمعه ما يعجز البعير ...

ما أجمل السماء ... وما أجمل سقوط المطر ... هي البداية ... هي الحياة ... فالشتاء يعانق وجه الأرض ... قد يتأذى الوجه ... لكن الماء خزانة للخصب ... فهو الشتاء حسنه الربيع ... ما أجمل المطـــر ...

* * *

لـم يعد الكلب يبالي بها أو تبالي بـه ... والزمن لا يتحدد بالساعات ...

« إنك تهدم حياتك بيدك » .

جملة سمعها من أبيه قبل أن يصرخ قائلاً : « لن أبقى في هذا البيت ما دام يخنق الفرحة ... » .

ـ أنا اخنق الفرحة ... والله وبدأت تفهم ... ابن جامعه وأنا حمار ... وحاولت أمه أن تتدخل ... لكنها فشلت ... وابتعد عنه والده في اختزالة غاضبة ... وهو يقول ... سنرى من هو الكبير صاحب هذا البيت ... العامل ... أو العاطل عن العمل ...

* * *

الجامعة تحمل الذكرى الطيبة ... فالمصاريف القليلة التي توضع في جيب أحمد كان يوفر منها من أجل شراء مجلة أو جريدة ... ويتابع أحداث فلسطين اليومية ... والجرح يصخب كلما كونت الأخبار عمق المأساة بعد هزيمة بيروت ... ويثور في الذهن تساؤل حول أرضية النضال الجديدة ... أأرضية ثورية ... أم أرضية أخرى ... تجير ... وتجير ... كل الأشياء والممارسات تشد النواة إلى هدوء مشدود ... وهذيان في ليل طويل ...

* * *

ـ أنا أبوك ، ولا أملك القدرة على جعلك تلتفت إلى جامعتك ودروسك ... وين أحمد ... ؟! أخذوه اليهود ... !! وهات عطل ... وهات مشقة ... وتخرج من السجن ، ثم تعود إليه ... الحياة لا تقبل السجن والجامعة ...

ـ لست وحدي ... كلنا نعيش في الضياع ... وعلينا أن نؤمن بأن أتفه الأشياء تؤثر في خلخلة الكيان القمعي ... وال ...

ـ أعرف ماذا ستقول ... هذه الفلسفة حفظتها ...

وانتهى اللاحوار ...

* * *

أحاطت جحافل الجيش بالقرية الصغيرة بعيد الشروق .... فغطى الغاز وجـه السماء ... فابتسم الطفل القابع في ركـن العتبة خلف الباب ...

ـ أمل ، هاتِ الحجارة .

ـ أبي ، إليك بالمقلاع .

ـ أمي ، ادخلي إلى البيت مع الأطفال .

ويتشبث الطفل بالحجر ... ويصبح البيت قرية ... والقرية قلعة ... وتطول ساعات العراك ... فالزمن يحسب بالدقيقة ... ويحيط الستار الأسود بالقرية ...

ـ ها هم ينسحبون ...

وتنطلق الزغرودة من بيت أبي أحمد ... فيصبح البيت كله القرية ... يرتفع قمرياً ... علماً ثورياً ...

... إنه أحمد .

* * *

حام الطفل الصغير ، أعني ابن السنوات العشرة ، يردد بصوت أليف إلى درجة البكاء :

أحمد بن أبو أحمد استشهد ... أحمد بن أبو أحمد استشهد ...

جلس الطفل الصغير – أعني ابن السنوات الخمسة عشرة – قرب ابنة خالته لينا ، وهمس في أذنها شيئاً ... وقفزت أذنها من عند فمه ، وقالت غاضبة :

الذي عمله أحمد شيء ، والذي يعملونه شيء آخر ... !!

– أردت أن تشاركيني هواجسي !!

– لا تخف ، فهذه الأرض ستورق دوماً ...

وجهان عاريان وبندورا

(وأيضاً بندورا اسم حواء في الأساطير الاغريقية)

في ذلك اليوم باضت الشمس كتلة من الصهد ، فتداخلت الأجزاء الجسدية في حركات مائعة شدتها عظام محترقة ، مهترئة ، تسير فوق الرمال ذات اليمين وذات الشمال ... تصرخ طق ... طق ... مات ... عبدالله السالم ... وتتوقف عند مساحة من الظل تحت شجرة صحراوية ؛ حيث اتخذ النمل مسعاه في حركات غاضبة متوترة ، تهرب من اشتعال الرمـــل ...

كان الهيكل العظمي يؤشر للسيارات المارة بسرعة جنونية في الشارع الداكن المغسول بغضب العجلات ... وكان حذراً ؛ وهو ينقل أقدامه تحت بقايا الظل خوفاً من أن يدوس نملة ما فضلت ألا تدخل بيتها لاحتراق جوف الأرض ... ينظر إلى جهة أخمص القدمين ، يتابع حركات النمل ، وعندما يسمع هدير سيارة ما يرفع يده اليمنى ؛ يؤشر . وقد كان مغسولا ، وصوته مخنوقاً ، يردد تعويذة : طق ... طق ... مات عبدالله السالم ...

* * *

شددت عبدالله السالم من وسطهم ؛ أخذته بقوة لا أعرف كيف سكنتني آنذاك . كان صدري يدفع جسداً ضخماً إلى مكان أكثر انعزالاً ،

حيث ابتعدت به عن الناس الذين شدهم منظرنا مذهولين أو مستنكرين وربما مبتسمين ٠

قلت له : ماذا فعلت يا مسطول ؟! أتريدنا أن نذهب إلى داهية ؟!

لم يبق إلا أن تثير الناس علينا !! ألآن بدأت أصدق أنك مجنون ابن مجنون ! ٠٠٠

لا أعرف كيف وصلت يدي اليمنى إلى رأسه ، ورحت أقرعه بصخب ، في حين احتوت يدي اليسرى وصدري خاصرته :

ـ هذا الرأس فارغ ٠٠٠ لا شيء فيه إلا التبن !! إذا وصلت الأمور معك إلى نهايتها ، فانتحر في البيت ٠٠٠ احترم وجودي معك ٠٠٠ الحق عليَّ أنا ٠٠٠ أنا من قرر أن يغير الجو على جسدك النتن ٠٠٠ داهية تأخذك وتريحني من همك ! ٠٠٠

كانت المسافة بيننا وبين الناس حوالي عشرة أمتار ٠٠٠ هل شعر بقوتي فسار معي كل هذه المسافة ؟ أم أن كلماتي اللاهبة أثرت في كيانه المتفجر ، فقرر أن يميل إلى التراجع ؛ فانساق إلى دفعاتي كل هذه المسافة الطويلة ؟ ٠٠٠ ربما لم يسمع شيئاً مما قلت لأنني شعرت بأن قوتي في نهايات جزره كانت ضعيفة ، وأنه حاول المسافة كلها أن يتخلص من قوة جسدي الأقل حجماً من جسده العملاق ٠٠٠ وكان

يفضل المسالمة معي . وربما كان يشعر بحاجة ما إلى هذا الحاجز الواهن بينه وبين الآخرين ؛ الذي يجعله يتحصن في دائرة الشتائم ... يفضلها في كل الأحوال على استخدام يده أو رجله أو حتى رأسه ...

وفي لمح البصر ، وجدته يعود إلى مدّه هاجماً ومتحدياً للناس الذين كانوا محايدين ينظرون إلينا كنظراتهم إلى حلبة مصارعة ؛ الأمر الذي أثار جنونه ...

حاولت أن أدفعه بعيداً مرة أخرى ، لكنني عجزت ، حاولت أن استعين بأكثر الناس حيادية لكنني عجزت ... وكانت وجوه الناس تتنفد صبرها ؛ وربما يميلون الآن إلى ضربه ، وربما تقع المصيبة كبيرة على رأسينا ... تحسست الأوراق في جيبي ، ودار ذهني دورة ضوئية ؛ فأخرجتها من الأعماق صرخةً مدوية ، وأنا أرفع أوراق القصائد غير الموزونـــة :

« يا جماعة ، الزلمة مجنون ؛ !! لا تقتربوا منه ، لا تبعثوا أرواحكم إلى داهية . هذه الأوراق تثبت أنه خرج أمس من مستشفى المجانين ؛ أمس فقط أخرجته لأغير له الهواء . قالوا : إنّ صحته تحسنت ، وإنه سيعود إلى حالته الطبيعية بعد ثلاثة شهور . طلبوا مني أن أعيد ثقته بالناس ... هذه الورقة تثبت أنه يعاني من انفصام في الشخصية ... وهذه الورقة تثبت أنه يعاني من أمراض الشك ... وهذه الورقة تثبت

أنه يظن نفسه مصلحاً اجتماعياً ... وهذه الورقة تثبت أنه مصاب بعقدة أوديب ... وهذه الورقة تثبت أنه يظن نفسه فيلسوفاً ... وهذه الورقة تثبت أنه يعاني من حرمان مزمن ... فاصبروا على الرجل جزاكم الله خيراً ... » .

كانت الطير على رؤوسهم جميعاً ، وعندما توقفت ؛ نظرت إلى عبدالله السالم ، فوجدته يستمع إليّ ببلادة ... وكان عرقي نهراً جارياً ... وكان عرقه جافاً ، وملامح وجهه متنورة بالوداعة والابتسام ... رأيته يبتسم . وعندما رددت عليه الابتسامة ، تجهم وجهه ، وتقدم مني بخطوات واثقة ... ثم طوح قبضته في صدري ... ربما انتظرت الوقت المناسب لكي أقوم وأسدد له الضربة المعادلة مهما كلفني الأمر ... لكنني تنازلت عن الرد عندما رأيت حقارة جسدي أمام ضخامة جسده ، وتلاشت حرارة الانتقام عندما انتشلني من قفا الأرض ، نافضاً التراب عن قميصي الأبيض ، يردد بعذوبة الماء :

« أنا مجنون ، يا معتوه ؟!! » .

ـ لا يوجد معتوه على ظهر البسيطة وأنت موجود . ولا أقل من عقلك لما قررت أن تحارب البلد ! ...

تابعنا حركات الناس ، وهم ينفضون من حولنا ؛ تتعالى بعض الضحكات الجافة ، ولم يخل الأمر من تعليقات :

ـ لا حول ولا قوة إلا بالله !!

ـ الله يعوض على أهله !!

ـ عليه العوض ، ومنه العوض !!

ـ أنا عارف كيف هذه الأشكال عايشه ...

قال ، وقد استسلم لذلٍ عميق : كلهم الآن سجلوني في دائرة المجانين وضمائرهم هادئة ... ولو وجد صبية مثل صبية حارتنا لطقوا الآن ورائي !!

ـ أتريد أن تقيم الدين في مالطة ، وأنت تحمل السلم بالعرض ؟!

ـ أرأيت كيف يغشون البندورا ؟! الحبات العلوية سليمة !! وإذا طلبت قلب قاع الصندوق ، يقولون : « أعجبك حالها خذها ، وإلا فاتركها ...

قلت له ، ونحن نركب السيارة : ألف مرة قلت لك سجل البندورا على قائمة الفواكه ، اتركها تعود إلى أصلها ...

* * *

كانت السيارة تسير في الشارع المغسول بالقار واشعة الشمس عمودية والسراب يتراقص كاللهب ... وكانت المدينة تجري الى الوراء ... والخلاء يتراءى لنا كما رد ينفخ في بوق مخنوق ... وكان علينا ألا نعود الى الغرفتين المخنوقتين ... وكان عبدالله السالم يجلس بجانبي كطفل ، فطمته أم حنون وجهها كوجه التفاحة يشعر بالاغتراب الذي يتحول تدريجياً الى ذل مبهم ... بدأ وجهه انيسا يعيد الي أيام الطفولة ... حيث كنا ننتهي من لعبة « طجة الخرق » . ويكون عبدالله السالم مهزوماً ...

* * *

مجنونة هذه السيارة عندما تمتد بها الشوارع المدهونة بالقار الى الفراغ وتهمهم كعجوز مسعول عندما تقف على الاشارات الضوئية ...

انعطفنا الى شارع ترابي بعد ان تلاشت البيوت كلها وتعمقنا في الخلاء وعندما نظرت الى وجهه كان الوجه كتلة من الدم المدهون هو الآخر بالقار ... ولم أكن أعرف كيف اعاود الحديث معه لينسى ما فات ... فأنا أعرفه جيداً ؛ صحيح أن القرابة بيني وبينه لم تكن تعني أكثر من كوننا ابناء حارة واحدة ، لكن أمي ولدتنا معاً ، هكذا كانت تتخيل الي علاقتي بعبدالله السالم ... ومع ذلك فنحن مختلفان لانه امرؤ لا يعجبه العجب وخاصة بعد ان فقد حبيبته عندما قرر الاغتراب ... رفضوا أن يعقدوا قرانه عليها ، ورفضوا أن يمهلوه سنتين كي يحسن وضعه المادي ، ولم يشفع له بكالوريوس الزراعة في أن يحافظوا على شعرة معاوية بينه وبينها ... وفوق ذلك فهم يعتقدون انه عدواني ، اذا سمع المذياع يشتم ، واذا قرأ الأخبار في الصحيفة يشتم ، واذا شاهد التلفاز يشتم ... واذا ناقش يشتم ... وكانت له شهية غريبة للشتيمة ، وكان بالنسبة لهم ظلاً ثقيلاً ... ولم تجد اطراءات حبيبته وتمسكها الطفولي به ... فانقطعت الحبال ، وغابت من حينها النقطة البيضاء من حياة عبدالله السالم ...

تركته جالساً على المقعد عندما فتحت باب السيارة لاواجه أشعة الشمس التي خفت حدة عموديتها ، وفركت عيني المتعبتين من نظرة واحدة إلى الفراغ ... سمعت بابه ينفتح ، وجاءتني طقطقات غريبة تتعالى تدريجياً ... نظرت إلى الوراء ، فشاهدت عبدالله السالم ، يعتلي سطح

السيارة ، وقد انخلع قميصه الأبيض عن جسده الذي بدا متفحماً ، تنغرس فيه غابات كثيفة من الشعر المدعوك . رفع قميصه بيده اليمنى إلى الأعلى ، وشدت يده اليسرى شعره المنفوش ، وأخذ يصرخ بصوت يتردد من غير صدى :

« أنتم مجرمون ... أنتم تغشون البندورا ... أنتم تقتلون البندورا ... أنتم جعلتم سوق الخضار جحيماً ... ماذا أفعل بنفسي لأجلكم ؟ ... لقد مللت الغش ... مللت العفن ... مللت قاع الصندوق ... أصبحت حياتي جحيماً ... أعود إلى الغرفتين لأمارس أكذوبة الفرز ؛ هذه حبة صالحة ، وهذه غير صالحة ، وهذه متعفنة ، وهذه نصف صالحة ، وهذه معدومة وهذه لها رائحة ... جننت ... جننت ... » .

وضعت كفي على أذني ، ورحت أجري كالمسوس في الخلاء ، كي لا أسمع صوته ... لا أريده أن يقتلني لا أريد الموت الآن ... خمس سنوات وأنا طبيب لعبدالله السالم ، وممرض ... خمس سنوات كانت كافية لقتل جمل ضخم ... مسافات قطعتها وأنا أجري إلى أن انقطع نفسي ... وتيبست شفتي العليا ... وتلاعب الجمر في حلقي ... رفعت يدي عن أذني وبدأت أسترق السمع إلى صوته ، ولم أنظر إلى الوراء ... لحظات مرت كعمر السنوات الخمس ... فاستدرت بعيني إليه ... لم يكن واقفاً ، وأصبحت في مكان قصي ... والسكون يخنق كل الأشياء ... ارتعبت ، بل سقط قلقي إلى أخمس القدمين ، وتأكدت من نهاية انفجار شحنات الغضب المكتنزة في جوف عبدالله السالم ...

هكذا كنا نفعل عندما تحاصرنا المآسي ؛ نغلق الأبواب ، ونيمم وجوهنا إلى حيث يقبع الخلاء موحشاً أنيسا ... لكن تصرفات عبدالله السالم هذه المرة كانت ، غاية الغرابة ...

بدت السيارة البيضاء المتسخة بلون بني مفتوح كجمل ضربته شاحنة ما في قوائمه الخلفية ، فانهزم إلى الأرض قارعاً رقبته على الرمل كجثة مرت عليها ساعات طويلة ... وتخيلت وجهاً محترقاً من شدة الانفجار ... هل أجري نحوه لأرى إن كان قد حدث له شيء ما ؟! ليس من المعقول أن يحدث له شيء لأنه لم يبلغ الثلاثين من عمره !! ربما جاءته أزمة ! اللعنة على الوسواس الخناس ؛ لم يذهب عبدالله السالم إلى طبيب قط ... كنت أنا طبيبه رغم أوهامه التي يعجز عن حلها عشرة أطباء ...

* * *

كان وجهه ملتصقاً بسطح السيارة المشتعل ... أما قميصه فقد استلقى على مسافة أمتار ثلاثة من العجلة الأمامية ... وكانت يده اليمنى تحت صدره كأنها تتحس مكاناً ما جهة القلب ، أما يده اليسرى فكانت مقبوضة تلامس الزجاج الأمامي ... ولم أتخيل وضعية ما لرجليه ؛ لأنني شددته من يده اليسرى وأنا أصرخ : عبدالله ... عبدالله ... عبدالله ...

صدمتني يده المتيبسة ... رفعت وجهه مساحة صغيرة ، فكان محروقاً بلون الشارع المغسول ... عبدالله ... عبدالله ... سحبته بكل قوتي ؛ فكان جذعاً رومياً لشجرة أرطى ، شددته كطفل ، فركض

إليَّ ... عبدالله ... عبدالله ... كان متجهماً متيبساً ... عبدالله ... عبدالله ... لا حياة لمن تنادي ... وصرخت في كلِّ الصحراء :

عبدالله السالم مآ آ آ آ آ ت ْ .

عبدالله السالم مآ آ آ آ آ ت ْ .

صفقت بيدي ، ضحكت حتى الثمالة ... لم تنهمر دموعي ... انحبس عرقي ... صفقت ، ورددت : طق ... طق ... مات ... طق ... طق ... مات ...

سرت على قدمي هارباً نحو الشارع المغسول بالقار ؛ حيث ألسنة السراب . ماذا أعمل له ؟ مات !! لا أريد السيارة ، سأتركهما ... هو مات ، عليهم أن يحضروا ليدفنوه ، هم الذين غشوا البندورا ، وليس أنا ... هو معذور ؛ ذكرياته كلها مليئة بالبندورا ... كان يقطفها كحجارة الصوان من حجور أمهاتها ... ما ذنبه إذا كان ماضيه شعلة من الخضار الطازج البارد ... لذلك قرر أن يدخل كلية الزراعة ؛ ليكون مزارعاً ... اختار هو الزراعة ، وأنا اخترت الأدب ... كنت أقول له الحياة ألوان وكان يقول : الحياة أسود وأبيض . قلت له : يا عبدالله ، فرق بين الدراسة والماضي وبين سوق الخضار . فكان يرد عليَّ : أنت إنسان بليد ، لا يفهم معنى الغبن . قلت له : يجب أن يرخي أحدنا ليمتص عنف الآخر ، فكان يقول لي : حملني جميلة بهذه الفلسفة ... كانت حياتي كلها جحيماً معه ، وماذا فعلت له ؟! ساعدته على الموت ! كان من المفروض أن أشد ليرخي هو ...

طق ... طق ... عبدالله السالم مات ...

طق ... طق ... عبدالله السالم مات ...

سأذهب إليهم هناك ، سأصرخ فيهم ، وأقول لهم : تعالوا خذوا عبدالله السالم إلى المقبرة ، واحذروا أن تغسلوه ، لأنكم أنتم قتلتم عبدالله السالم ...

البندورا طق طق ...

البندورا طق طق ... عبدالله السالم مات ...

١٩٩٣/٦/١٣م

ابتسمت ٠٠ ولم تقل انتظر

انطلق الباص الأول يحمل في جوفه ستين راكباً ٠٠٠ كان يجلس في المقعد الأول ينظر إلى الثكنات العسكرية المتنوعة على جانبي الطريق ٠٠٠ لم يتغير شيء ٠٠٠ التفتيشات المعتادة ٠٠٠ حركات الجنود في الباص وحوله ٠٠٠ الذباب ٠٠٠ الارهاق والأرق ٠٠٠ غيابه ما يزيد على خمس سنوات يجعل العودة مثل آخر مرة ٠٠٠

الزوار والمواطنون يدخلون إلى القاعة الواسعة حيث يتم الفصل بينهم ٠٠٠ يجلسون على المقاعد ٠٠٠ ويصطفون أمام الغرف التي تطل نوافذها على القاعة ٠٠٠ فوج يعقب فوجاً ٠٠٠ وما زال يجلس على مقعده يدخن ٠٠٠ ينظر إلى الوجوه ٠٠٠ يذهب إلى الحمامات ٠٠٠ تتصارع في ذهنه آلاف الأفكار ٠٠٠ العودة بعد التشرد قضية مهمة ٠٠٠ يترك زوجه في شهر العسل ٠٠٠ ويعود إلى أمه ٠٠٠ الأفكار تدور والسنوات الخمس عجاف ٠٠٠ والناس في القاعة مثقلون بالهموم ٠٠٠ هذا ما يظهر له ٠٠٠ فالفرحة تغادر كل الوجوه ٠٠٠ والزمن يفرض تعرجاته ٠٠٠

* * *

قطعت تأملاتـه بصوت الشرطي ينادي : عبدالسميع المقيـد ٠ التفت إلى الغرف الثلاث ٠٠٠ فعرفت فطرته الغرفة ٠٠٠ لقد جاء الفرج ٠٠٠

ـ أنا عبدالسميع المقيد ٠٠٠

ـ جواز سفرك ٠

قدم الجواز ، وانتظر كي يأخذ أوراقه ويخرج إلى التفتيش ...

ـ انتظر في القاعة .

قال الرجل الذي يجلس في المقعد المجاور : ماذا يريدون منك ؟!

ـ أخذ الجواز .

ـ لعلهم يريدون التأكد من اسمك .

ـ لا أعرف .

تابع نظري حركات الشرطي والجواز ... لقد أخذته الشرطية ... وخرجت ... قدم الجندي جواز السفر للشرطي ... فتح الشرطي الجـــواز ...

ـ عبدالسميع المقيد .

ـ نعـــم .

ـ اسمك عبدالسميع صافي المقيد ؟

ـ نعـــم .

ـ ...

ـ ....

ـ .....

ـ ٠٠٠٠٠٠

ـ انتظر في القاعة ٠

* * *

الزمن يسير ببطء شديد ٠٠٠ الدقائق تتحول إلى ساعات ٠٠٠ والقاعة تتحول إلى أزمة اضطراب ٠٠٠ والجوع يدب في أحشائي ٠٠٠

ـ عبدالسميع صافي المقيد ٠

ـ نعـــم ٠

ـ كنت طالباً ؟

ـ نعـــم ٠

ـ ٠٠٠

ـ ٠٠٠٠

ـ ٠٠٠٠٠

ـ ٠٠٠٠٠٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠

ـ ٠٠٠٠٠٠٠٠

ضحك الشرطي ذو الوجه الهجين المشبع ٠٠٠ وابتسمت الشرطية التي كانت تراقب الموقف بشحوب أنثوي ٠٠٠

ـ انتظر في القاعة ٠

ـ انتظرت كثيراً !!

ابتسم في وجهي وقال : انتظر ٠٠٠ والتفت إلى الشرطية ، وحدثها بالعبرية ، وهي تبتسم ٠٠٠

يبتسمون ٠٠٠ الجوع يؤلمني ٠٠٠ والتبغ يشعل معدتي ٠٠٠ حضارة القمع في ابتسامة ٠٠٠

* * *

دخل جندي إلى القاعة وهو يبتسم ٠٠٠ يحمل في يده ورقة بيضاء ٠٠٠

ـ عبدالسميع المقيد ٠

ـ موجود ٠

أخذني إلى التفتيش ٠٠٠ أدخل تحت آلة كبيرة ٠٠٠ تفحص كل ذرة في جسدي كما يتهيأ لي ٠٠٠ لا شيء ٠٠٠ يدخلني إلى غرفة ضيقة ٠٠٠ فأتعرى من كل ملابسي بناء على الحاح ابتسامة الجندي ٠٠٠ يفتش الملابس قطعة قطعة ٠٠٠ ويمرر آلة صغيرة على جسدي ٠٠٠ فأضحك عندما تؤشر الآلة ٠٠٠

ـ ماذا يوجد هنا ؟

ـ لا يوجد غير البيض !!

يعيد الآلة مرة أخرى ، فلا تعطي إشارة الخطر ... ويبتسم في وجهي ... يلقي بالقلم في المهملات وهو يبتسم ... يكسر بعض السجائر وهو يبتسم ... يحمل حذائي إلى الفحص وهو يبتسم ... ويعيدني إلى قاعة الانتظار وهو يبتسم ...

ـ انتظر هنا حتى تسمع اسمك .

* * *

لم أعد أعبأ بما يجري لي أو حولي ... ولم يعد الانتظار يشكل أرقا ... والجوع يسقط ... والسيجارة لم تعد ذات مذاق طيب ...

راقبت حركات شاب فلسطيني ... في الثلاثين من عمره ... تقوده امرأة ربما أمه ... ينتفض جسده لا شعورياً ... يفقد توازنه ... يصرخ ... يشد بيده أي شيء أمامه من المقاعد أو المارة ... واقترب الوقت من نهاية الدوام ، ولم يعد في القاعة إلا أنا وامرأة مواطنة في الخمسين من عمرها وفتاة زائرة في العشرين من عمرها . نجلس في مقاعد متقاربة ـ التفتت إليّ المرأة وقالت : من زمان موجود هنا ...

ـ من الباص الأول !!

ـ كلاب ، لا أعرف لماذا يؤخرونا ...

وكنا ننظر إلى الغرف التي أصبحت خالية ... بصمت ...

أخذ الشرطي المرأة والفتاة ... ومكثت في القاعة انتظر ابتسامة جديدة ... وجاءت الابتسامة في وجه الشرطية ... تجر معها الجندي

الذي قـام بتفتيشي ... نظرت إليّ وتحدثت معـه بالعبرية ... وابتسمت ... فأخذني الجندي إلى قاعة صغيرة مجاورة ...

ـ انتظر هنا .

وانتظرت ... فتح باب الغرفة المطل على القاعة ... وخرجت منه الشرطية ...

ـ معك تصريح ؟

ـ هذا هو .

ـ إنه انتهى من شهرين ...

ـ انتهى منذ شهر ونصف ... وهي الفترة التي كنت اتعالج فيها ... وهذه التقارير الطبية ...

اقلعت إلى الغرفة مهملة « انتظر » والتقارير الطبية ... وسمعتها تتحدث في الهاتف باللغة العبرية ... اغلقت السماعة ... وعادت إليّ ...

ـ اسمك عبدالسميع صافي المقيد ؟

ـ نعـــم .

ـ اسم أمك شعلة ؟

ـ نعـــم .

ـ درست في الجامعة ؟

ـ نعـــم .

وعادت إلى الغرفة مغلقة الباب وراءها .

* * *

يدخل إلى القاعة جنديان ومعهما شاب ... يجلس بجواري ... يطلب سيجارة ... قال لي : لماذا أنت هنا ؟

ـ لا أعرف .

ـ إنهم يعتقلونك مثلي !!

ـ لا أعرف .

وخرجا به ... وحضر ثلاثة جنود مدججين بالسلاح ... تحدثت معهم الشرطية فخرجوا ... ونظرت إليّ وهي تبتسم ...

ـ معك كل أغراضك ؟

ـ نعـــم .

وأشعلت سيجارتي ... بعد أن عادت إلى الغرفة ...

حضر جنديان أقل سلاحاً ... دخل أحدهما إلى الغرفة ... وطلب مني الثاني الوقوف ... وكان يحمل في يده السلاسل وكيساً أخضر اللون ... وخرج الجندي الآخر من الغرفة يحمل ملفاً ... فنظرت إلى الشرطية ... فاذا بها تنظر إليّ وتبتسم ... ولم تقل : انتظر .

* * *

وفي القيود سجن ... وفي المنافي ضياع ... ولا تجد من يبتسم لك ...

عندما أجلسوني أمام الضابط المدني ، وقد تحوطني اثنان آخران ، لم يكونوا مبتسمين قط ... وعندما تذكرتها ـ وهي ترشقني بابتسامات ثملة ـ ابتسمت بعد أن رأيت هذه الوجوه ، وربما تناسيت وجودهم ، لأن عيونهم كانت تبحلق من غير كلام ، ولا أعرف إن كان سؤاله الأول قد تكرر عدة مرات :

« لماذا تبتسم ؟ » .

ـ أنا هكذا !! من طبعي أن أكون مبتسماً في أشد المآزق ... !!

ـ أنت عربي ، وتعرف بأن الضحك من غير سبب من قلة الأدب ... !!

ـ لي أسبابي الخاصة ، والذين وضعوا المثل الذي قلته أغبياء وأوغاد وفضوليون ...

وفجأة اكتشفت وجهه عند وجهي ، وخرجت من جوفه بصقة أولى ثم تلتها الثانية ، فكانتا مفعمتين بعفن الخمرة والتبغ ، فشعرت بجسدي يلف بمياه مجـار خضراء . وعندما رفعت كـمّ يدي اليمنى لأمسح النفايات عن وجهي جاءت يده اليمنى إلى أعماق بطني من خلال ضربتي « سوينق » لا أعرف كيف امتصهما بطني ... وكانت الصفعة على صدغي الأيسر جافة مفاجئة ، وفي لحظة كلمح البصر شدت يده اليمنى زيق قميصي الأزرق من الأمام ، وراحت مع اليد اليسرى تضغطان على عنقي ... وسحبني عن المقعد الخشبي إلى جدار الغرفة البارد ضارباً رأسي بعرضة ضربات كثيرة ، لا أعرف كيف سلمت منها ... قدرة

إلهية ... كل ما آلمني هو شعور حقيقي بالاختناق . ومما زاد الطين بلة بصقة ثالثة كبيرة الحجم حلت فوق عيني اليسرى ... وكان يهذي بأشياء كثيرة لم أدرك معناها ، لانشغالي بحالي . ولم أشعر إلا والضابطان يحجزانه عني ، إذ قد التزما من البداية الحياد ، أو هما موجودان أصلاً لحمايته من المعتقلين ، ومن تدفقاته العصبية الشرهة ... هل هو مريض ... ؟! وجاءت ركبته اليمنى في بطني من ضربة ضاغطة ، سعلت إثرها سعلتين مخنوقتين ...

أجلساني على المقعد الخشبي . وعندما حاولت الاصلاح من وضع قميصي المهتك جاءني من الخلف ، وأخذ يمزق القميص من جهة الكمّين والظهر مقطعاً أزرة الأمام ...

جلس على مقعده فكان وجهه محتقناً بالدماء ، وقال :

« أنت عربي وتعرف الذي يقول : المهم مين يضحك في الآخر » ...

وضع الكيس الأخضر على رأسي ، وقادني أحدهم ضمن مداخل عمياء إلى عالم الزنزانة ...

* * *

أيتها المدن الباكية :

هل جاءهم الآخر ؟!

هل هم الآن يضحكون ؟!

أم أن الآخر لم يأت بعد ؟!

إذن ليضحكوا عندما تكون خطواتنا إلى الوراء ، لأن بيوتنا حريصة على أن تشرق وقت ما تشاء ...

* * *

في النزلة وفي الطلعة كنت أبحث عنها ... سنوات خمسة مرت عندما رأيتها ... كانت ناشفة ، وقميصها أكثر انفتاحاً عند الصدر ، وربما بدت لي أقصر مما كانت ، وأكبر سناً ...

هل تعبوا من الابتسامات الصفراء ؟!

هل تعبوا من حمل السلاسل ؟!

هل قرروا أن يرحلوا إلى البارات البعيدة ؟!

هل قرروا أن يمكثوا ليشهدوا خاتمة النهاية ؟!!

كل ما أعرفه أنّ زمن الضحك للمدن الباكية لم يحن بعد ...

أنا والنعمان السادس عشر

كانت ساحة المدينة العامة مهملة ، وكان الزمن عصراً ... لم يكن في الساحة غيره ، أشعث ، أغبر حتى نصف الثمالة ... لا شيء يميز الساحة غير سور متهتك ، ومقاعد قديمة ، وبراميل نفايات متناثرة مطلية باللون الأخضر ...

ربما كانت الصدفة وحدها هي الوسيلة التي جمعتنا في تلك الساحة الكئيبة ... لم أره قبل هذا اللقاء ... هكذا تخيلت موقفي تجاه رجل يسير وحيداً في الساحة ... أنا لا أهتم بالأشكال والمظاهر كثيراً ... فاذا رأيت على سبيل المثال وجهاً على التلفاز ، ورأيت الوجه نفسه في الشارع ، لا أستطيع الجمع بين الوجهين ببساطة ؛ لأنني بتواضع بسيط لا أهتم بملامح الوجوه الذكورية ... ولا أعرف تفاصيل وجهي ؛ لأنني لا أحب المرآة ...

لا تعتقدوا بأنني اتخذت موقفاً عدائياً منه لأنني لم أهتم كثيراً بكيفية استعادة تاريخ أجداده في حاضره ... كما أنني كنت كهلاً في ذلك الزمن ... ولم أعد أبالي بمشاعر الآخرين عندما يكونون في قمة الهرم . وهو كما قرأت عنه ركب السلطة بعد أبيه عام ٢٠١٣م ، وأن امتلاكه للحكم دام خمسة عشر عاماً متى قرأت عنه ذلك ؟! لا أستطيع التأكد من مقدرة خيالي على التذكر ! ...

اكتشفته يسير في الساحة متوتراً ، كئيباً ، مأخوذاً بفاجعة ألمت به ... ربما ذكراها ... وكان يردد عندما اقتربت منه ـ مما أكد تمحكي به ـ بشفاه جافة ، وعيون تناثرت سهامها ، فلم يعد قادراً على رؤية الآخرين إلا بقدر ضياعه ...

ردد : قتلت أبي ... قتلت أبي ... !!

قلت بصوت منخفض : واحسرتاه على الناس !! على الناس !!

ـ ماذا قلت ؟ .

ـ عجيب ! ... هل فعلا قتلتَ أباك ؟!!

ـ قتلتُ أبي !! قتلت أبي !!

ـ وتزوجتَ أمّك ؟!

ـ ماذا تقول ؟!!

ـ عجيب ! ... اهدأ ... اهدأ ... ! وقل لي الحكاية من أولها ... !!

ـ قتلتُ أبي ... قتلتُ أبي ...

ـ عجيب ... عجيب ...

نظرت في عينيه لأتأكد من سلامتهما ، نظرت إلى يده الأخرى علىَ إمرأة ما تمسكها ... عيناه سليمتان ، ولا وجود لامرأة إلا إذا كانت جنية ... بسم الله الرحمن الرحيم ...

إنه معتوه بلا شك ... وواجبي أن أخفف عنه عبئه ... حمله الثقيل ... رجل" مسكين ... أمن المعقول أن يقتل أباه ... المسألة مسألة قتل ، لا مسألة « أف » ... لن ينفع الندم ... القاتل والمقتول في النار ...

والمسألة هنا أب ... الأمر لا يعدو أن يكون مجازياً ... أو هو خطأ ما وقع ، والمسكين يتعذب لأجل ذمك ... رحم الله أباه ... أما كان من الأفضل له ألا يتزوج ... « هذا ما جناه عليَّ أبي وما جنيت على أحد » ... المسكين جن ... وطار عقله ... !!

ـ قتلت' أبي ، قتلت أبي ، قتلت أبي ...

ـ من أنت ؟!

ـ النعمان السادس عشر ... قتلت' أبي ... النعمان الخامس عشر ...

نظرت حولي ... هو مدَّعٍ بلا شك ... أمن المعقول أن يكون هو ... من الرجل !؟ ... النعمان ؟! ... ماذا حدث للدنيا ... لم أقرأ الصحف ... ولم تعلن الصحف قط في حياتها عن ضياع الكبار ...

ـ قتلت' أبي ...

ـ هيا ، يا سيد نعمان ، لنجلس هنا على هذا المقعد ، تحت هذه الشجرة ، تلقي عليه شيئاً من الظلال ... فكما تعرف فالساحة لكل

الناس ... ولا يوجد غيري ... أين ذهب الناس في هذا اليوم الكئيب ... لكنَّ اليوم من حسن حظك وسوء حظي ... فضفض ... كب همومك عليَّ علِّي أجد لك مخرجاً ... ولا تخش شيئاً فلا أحد هنا ... أنا وأنت ... وأقسم لك بأنني سأضع سرك في خزانة قلبي ثم ألقي بها في بئر خربة ... كلي آذان صاغية .

ـ قتلت' أبي ... قتلت' أبي ...

ـ خطأ وقع ، لا عليك ، لم تكن تقصد !!

ـ ماذا قلت ؟!

ـ عجيب ... اهدأ ... وما دمت لا تريد الحديث فاسمعني جيداً يا سيد نعمان لأنني سأحدثك عن أبي .

ـ قتلت' أبي ... قتلت' أبي .

ـ صه ... اهدأ ... اهدأ ... مجنون يحكي وعاقل يسمع ... وأنا سأتحدث لأنك أعقل مني ... أنا لا أجامل ... لأنني مجنون عندما جئت إلى هذه الساحة الميتة ... وكان عليَّ أن أقدِّر زمن البؤس في حياتك ، يا سيد نعمان ...

توقفت عن الحديث فترة قصيرة تبلعت فيها ريقي ... فوجدته صامتاً ينظر إلى وجهي ... حينها كسرت عينيَّ إلى الأرض ، وقررت أن أقول شيئاً آخر ...

* * *

تأكد يا سيد نعمان أن كل الآباء يموتون في أوقاتهم ...

لم أعرف أبي جيداً ، مات وأنا في التاسعة من عمري ... رحمه الله ...

لم أره يسير على قدميه قط ، ولا أستطيع أن أقدر طوله ... ربما كان طويلاً ... عرفت وخبرت أنه مكث سبع سنوات طريح الفراش ... وفي لياليه الأخيرة اشتد عليه الألم ... فكان الرجال ينامون عنده ، رحمه الله ... وفي فجر يوم باك مثل هذا اليوم ، أبعدت أنا وأخي الأصغر إلى غرفة بعيدة قبيل الفجر أو بعيده ، لا أذكر الآن تلك المسألة ... وربما بعد ساعتين من شروق شمس الخريف تأكدت من موت أبي ، فخنقتني العبرة ، ولم تتساقط الدموع ... وتناثرت الروائح المعطرة لجسده الذي لم أكن قادراً على معرفة ... كيف أصبح ذلك الجسد ، عندما انتقل إلى رحمة ربه !! ... لعبنا في زجاجات العطر ... وربما اعتقدت في الموت راحة لأبي لأنني سمعته كثيراً يطلب من ربه أن يأخذ « وداعته » ... تابعت عيوني تلك المسيرة الطويلة من الرجال تسير وراء النعش ... ولم أذهب ، ولم أعرف القبر ... خرجت في الليل ، ونظرت إلى النجوم باحثاً عن « بنات النعش » ؛ نجوم خمسة ؛ واحدة في الأمام ، وأربع يشكلن مستطيلاً كأنهن يحملن النعش ... لم أر شيئاً ... لذلك تأكدت من أنّ أبي لم يكن من الناس الكبار في الدنيا ...

أحببته إلى درجة الهذيان ... بحثت عن ذكراه في نفسي ، فوجدتها أشياء قليلة يا سيد نعمان ، لكنها أجمل من الذهب وأغلى ...

مرة وقعتُ عن درج البيت ، فشق رأسي ، وقبل أن أذهب إلى المشفى . أقسم أبي يميناً قاطعاً مانعاً : إذا نوموني فانه سيحمل مرضه لينام معي ... أتعرف لماذا أقسم أبي ... لأنه وجد المر في المستشفيات ...

وعدت إلى البيت رغم إصرار الطبيب على النوم ... لكنهم وقعوا ورقة عدم المسئولية ...

مرة ولدت نعجتنا خروفاً صغيراً ، لكن الخروف المسكين تعذب من شدة الدوران حول نفسه ، ذبحوه ، وطبخوه ، ولم يأكلوه ... أتعرف لماذا ؟! لأن أبي أقسم ألا يأكل منه أحد عندما أشفقت على الخروف ، ورفضت أكل لحمه المعذب ... وصدقني ... إنني كرهت الكلب الذي كان يتودد إليّ لأنني اكتشفت أنه تنعم مدة يومين بلحم الخروف المسكين ...

وعندما مات جارنا الشيخ ؛ تسللت لأرى جسده على لوح الخشب ، وقد تجمهر عليه الرجال ... رحم الله جارنا ؛ كان جسداً يغسلونه « حتة حتة » ولا يمانع ... رحم الله أبي ...

* * *

لا يمكن يا سيد نعمان أن يصدق أي مخلوق أنك قتلت أباك ... لا أريدك أن تردد كلاماً فارغاً ... عقل نفسك وشد حبال رشدك ، والعن الشيطان ... واترك الهذيان ... النعمان السادس عشر !! ...

ـ قتلت' أبي ... قتلت' أبي ...

ـ لا فائدة !!

ـ ماذا قلت ؟

ـ عجيب ... !!

ـ قتلت' أبي ... قتلت' أبي !!

ـ لا فائدة ... !!

وفجأة كان بائع الجرائد أمامنا ... صدفة غريبة ! ... استمعت له جيداً وهو يقول : « اقرأ عن اعتزال النعمان السادس عشر ... وجلوس النعمان السابع عشر » ...

كالمسعوق اختطفت الجريدة ، فكانت صورة النعمان مشابهة لصورة نعمان ... وغداً ستوقع المراسيم ... والمراسيم ... إذن أنت النعمان وليس نعمان ... يا خبيث كيف استطعت أن تنقذ نفسك ؟!!

ـ ماذا تقول ؟!

ـ قتلتَ أبـاك ... قتلتَ أباك ... وحسرتـاه عـلى النـاس ، على الناس !!

تركته مرمياً على المقعد ... ربما يردد الآن تلك العبارة المختصرة ، ولم أعد أذكر إلا بائع الجرائد ، عندما اعترض طريقي يطلب ثمن الجريـدة ... فنظرت إليـه بحقد ... بعينين مجمرتين ، فلاحظت اضطرابه ، ثم جموده وهو يستقبل الجريدة مبعثرة في وجهه ...

١٩٩٤/٤/٤

فهرس القصص

الورقـــة ١١

عشتار وهواجس الحلم ١٣

عندما تشاكلت مع النمل ٢٢

لقاء في الفوج الأخير ٢٦

فنتازيا القفز على جدار من خشب ٣٣

إيقاعات حمسة لمدينتين ٤٤

الليل والزغرودة ٥١

وجهان عاريان وبندورا ٥٧

ابتسمت ولم تقل انتظر ٦٧

أنا والنعمان السادس عشر ٧٧

موافقة دائرة المطبوعات والنشر

رقم الاجازة المتسلسل ١٩٩٤/٧/٥٥٢

رقم الايداع لدى المكتبة الوطنية

١٩٩٤/٧/٧٢٧

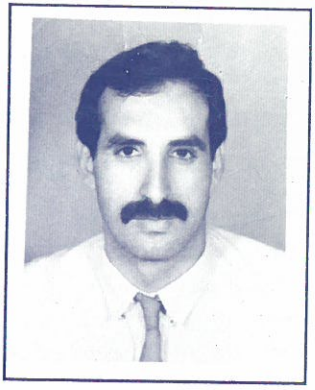

سـارت مسـافات طويلـة وهي تشم في ملابسه رائحة الغياب ، والاغتراب ، والطيبة ، والحـظ المتعثـر فـي الطابـور العاشر ...

وقد تهيأ لها أنها لامست آثار الجروح على جسد خشن مدعوك ببقع سوداء لم توجد في فضاءات البداية .

الفـوج والفـوج والفـوج والفوج ... وتجـري الدمـوع عنـدمـا تتكسـر المدينـة للحظات !!

لوحة الغلاف : للفنان خالد حجازي - 81 .

المطابع التعاونية - عمان